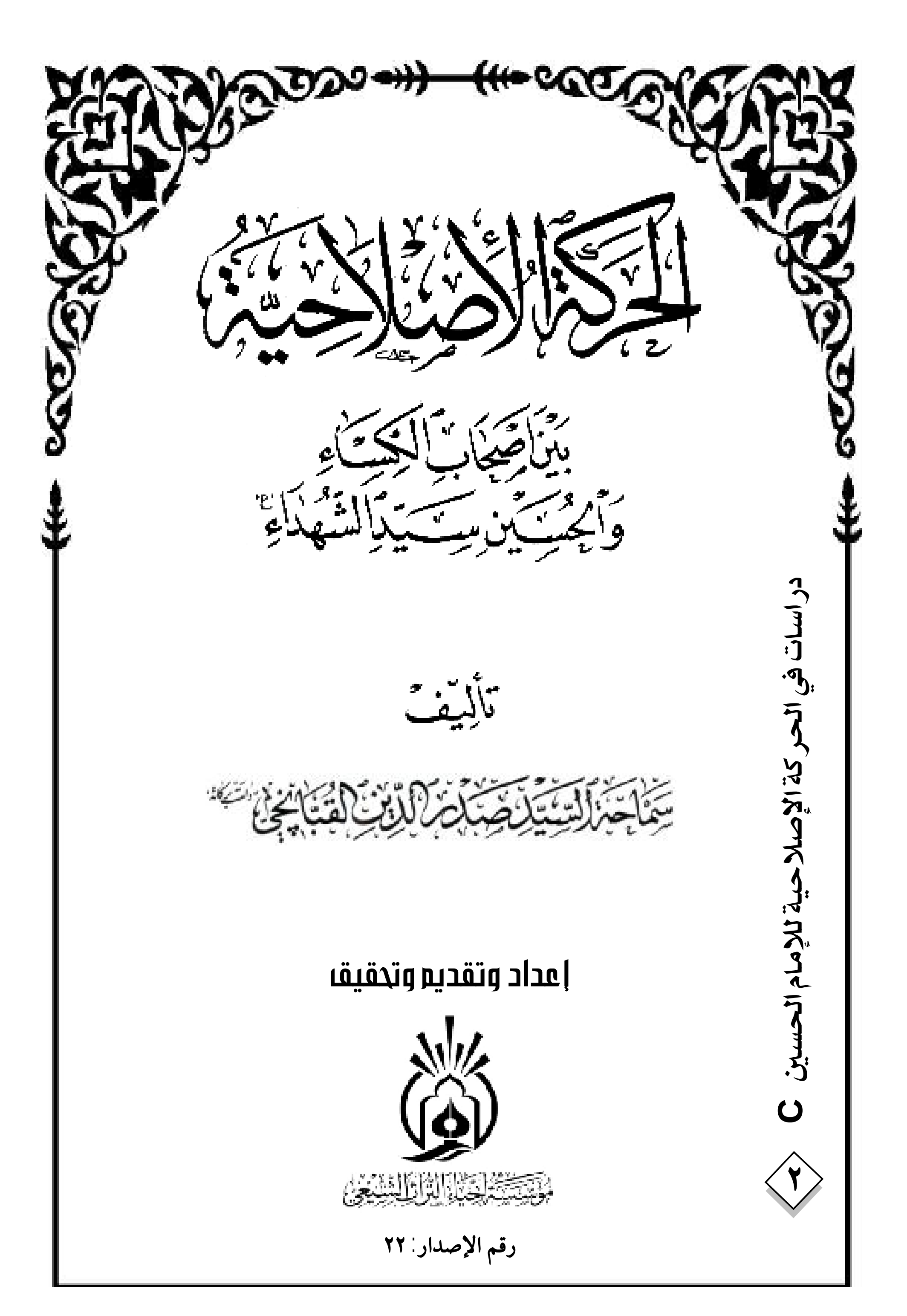


الحركة الإصلاحية

بين أصحاب الكساء والحسين سيد الشهداء

تأليف

سماحة السيد صدر الدين القبانچي

إعداد وتقديم وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

رقم الإصدار: ٢٢

دراسات في الحركة الإصلاحية للإمام الحسين C ٢



الحركة الإصلاحية بين أصحاب الكساء والحسين سيد الشهداء C

السيد صدر الدين القبانچي

رقم الإصدار: ٢٢

الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ

العدد: ٣٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة:

مـــا أحوجنـــا أن نســـتجلي الحقـــائق التاريخيـــة ونســـبر أعمـــاق التـــاريخ..! ومـــا أحوجنـــا أن نجـــد العلاقـــة بـــين غـــابر الماضـــي الســـحيق وغـــابر المســـتقبل بكـــل معالمـــه الشاخصـــة لـــدينا مـــن خـــلال معـــادلات التـــاريخ..! الإمـــام الحســـين C بشخصـــه أوّلاً، وبحركتـــه ثانيـــاً، لا يمثـــل محطـــةً تاريخيـــةً عـــابرة.. بـــل هـــو حركـــة لهـــا جـــذورها البعيـــدة مرتبطـــة بحركـــة الاصـــلاح والتكامـــل المتمثلـــة فـــي حركـــة أهـــل البيـــت G ومن قبلهم حركة الأنبياء والمرسلين.

الإمـام الحسـين C لا يمثـل واقعـة تاريخيـة واحـدة، بـل هـو قضـية أهـل البيـت G بتكاملهـا ونَضـجها ورشـدها الحقيقـي.. فـإذن ثـورة الحسـين C خلاصة الجهد لأطروحة النبي 9 وأهل بيته.

هـذه المعـادلات توضـحها محاضـرات العلامـة السـيد صـدر الـدين القبـانچي التـي ألقيـت فـي محـرم الحـرام مـن عـام (١٤٢٨هـ) فـي النجـف الأشـرف حيـث يتطـرق إلـى العلاقـة بـين حركـة الإمـام الحسـين C وبـين أصـحاب الكسـاء وعلـى رأسـهم رسـول الله 9 . فهـي علاقـة ترابطيـة تكامليـة، ولـيس علاقـة تشـابهية تجمعهـا المواقـف المتشـابهة فحسـب، بـل هي حلقات تربط بعضها بعضاً لتشكل سلسلة التكامل الصاعدة.

وهنـا تتكفـل هـذه الوقفـات ببيـان الـنمط الترابطـي بـين الماضـي والحاضر المعاش والمستقبل المنظور بأسلوب رائق جميل.

ومؤسسـة إحيـاء التـراث الشـيعي إذ تـثمن هـذا الجهـد المبـارك لسـماحة المؤلـف، تأخـذ علـى عاتقهـا نشـر هـذه المحاضـرات ضـمن سلسـلة دراسـات فـي الحركـة الاصـلاحية للإمـام الحسـين C ، سـائلين المـولى أن يوفـق الجميـع مـن أجـل إحيـاء معـالم تاريخنـا الزاهـر، وتراثنـا التليـد، إنـه ولـي التوفيق.

مدير المؤسسة

السيد محمّد القبانچي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف:

وبعد..

هذا هو الجزء الثاني من محاضراتنا في الحركة الإصلاحية للإمام الحسين C والتي قدّمناها خلال عشرة محرم الحرام لعام (١٤٢٨هـ) وقد تضمّن الجزء الأوّل دراسة مقارنة بين حركة الحسين C وحركة الأنبياء أولي العزم.

فيما يتضمّن هذا الجزء دراسة مقارنة بين حركة الحسين C وحركة أصحاب الكساء G (الإمام علي C ، والزهراء J ، والحسن C) فيما نأمل _ بإذن الله تعالى _ أن يتضمّن الجزء الثالث والرابع دراسة مقارنة بين حركة الحسين C وحركة باقي الأئمّة من أهل البيت G .

أمّا الجزء الخامس فهو يختصّ بدراسة مقارنة بين الإمام الحسين C والإمام المهدي C .

وإذ أقدم هذه البحوث للسادة القرّاء الكرام أودُّ أن أتقدّم بالشكر للجهود الكبيرة التي بذلتها مؤسسة إحياء التراث الشيعي في تحقيق هذه البحوث وأخصُّ بالذكر أخي العزيز سماحة السيد محمّد القبانچي زاد الله في توفيقه وتقبَّل منه ذلك بأحسن القبول.

السيد صدر الدين القبانچي
١٧/ جمادي الأولى/ ١٤٢٩هـ

(١ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة الأولى:

خصائص الحركة الإصلاحيّة

لدى الإمام علي C

(ظاهرة المبدئية القُصوى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذه الليالي هو عبارة عن دراسة مقارنة بين حركة الإمام الحسين C وبين حركة الخمسة من أصحاب الكساء، وهم: رسول الله 9 ، والإمام علي C ، ثمّ الزهراء J ، ثمّ الحسن C ، وخامسهم هو الحسين C .

وحيث كنّا قد تحدّثنا في العام الماضي من هذه المحاضرات عن دراسة مقارنة بين حركة الحسين C وحركة رسول الله 9 ، بقي علينا أن نتحدَّث عن حركة الأربعة الباقين من أصحاب الكساء.

هؤلاء الأربعة من أصحاب الكساء لهم تميّز خاص في حركتهم السياسية.

سياسة الإمام علي C :

ليس الحديث هنا عن شخصية وسيرة وتاريخ الإمام علي C ، إنَّما الحديث عن سياسته الإصلاحية كيف كانت؟ أهدافها، مناهجها؟ ثمّ ما هي أوجه التشابه بينها وبين حركة الإمام الحسين C ؟

سوف لا نتحدَّث عن شخصية الإمام علي C من خلال زهده وعبادته وشجاعته وسيرته وأخلاقه، وإنَّما نتحدَّث عن منهج الإمام علي C وسياسته الإصلاحية كيف كانت؟ ثمّ نقارن ذلك بالإمام الحسين C .

تنوع التجربة:

أوّل ما نلاحظ في الإمام علي C هو تنوع التجربة، فقد خاض C تجربة متنوعة في عدّة أدوار ومراحل، بدءاً من أوّل إسلامه في مكّة المكرّمة يوم كان عمره عشر سنوات، ولحين مبيته على الفراش يوم هجرة النبي 9 من مكّة المكرّمة، حيث أصبح C هو المؤتمن على الودائع، وإلى أن أصبح هو القائد العسكري في جميع الحروب التي خاضها المسلمون في المدينة المنوّرة، وحتّى أصبح أخاً لرسول الله 9 يوم المؤاخاة، كل ذلك في مرحلة وجود النبي 9 .

ثمّ تنتقل إلى مرحلة المعترك السياسي بعد رسول الله 9 ، وما هو دور الإمام علي C في تلك المرحلة، حتّى نصل إلى دوره في قيادة الحكم، حينما أصبح C حاكماً بعد مقتل عثمان بن عفان، وحيث كانت هناك معارك صفين والجمل والنهروان.

في كل تلك المراحل مروراً من مكّة إلى المدينة إلى العراق، ما هي سياسة الإمام علي C ؟ هذه التجربة المتنوعة بعدّة أشكال، مرّةً في المعارضة، ومرّةً في السلطة، ومرّة حركة ثقافية، وقبل ذلك حروب وغزوات ومعارك مع المشركين، هذه التجربة الغاية في التنوّع عاشها الإمام علي C ، ونحن نريد أن نعثر على ما هو الخيط المشترك في سياسة الإمام علي C في كل تلك المراحل، وما هي السِمة التي اتّصفت بها سياسته C ، هناك أهداف نُسمّيها أهدافاً ثابتة، وهناك أهداف نُسمّيها أهدافاً متحرّكة، الإمام علي C كان له أهداف ثابتة وأهداف متحرّكة، وكذلك كان رسول الله 9 ، وكل الأنبياء من قبله، وهكذا كل قائد له أهداف ثابتة وأهداف متحرّكة متغيّرة.

الأهداف الثابتة:

الإمام علي C في كل مسيرته كان له هدفان ثابتان:

الهدف الأوّل: هو المحافظة على الإسلام.

الهدف الثاني: هو المحافظة على الأمّة الإسلاميّة.

هذه أهداف ثابتة لا يتخلَّف عنها الإمام علي C ولا في مرّة واحدة، لكن هناك أهداف متحرّكة تظهر بأساليب متعدّدة على شكل مقاطعة مرّةً، واحتجاج مرّةً أخرى، وحروب مرّةً ثالثة، هذه أهداف متحرّكة متغيّرة تتبعها مواقف وسياسات متغيّرة، إذن هناك أهداف ثابتة وأهداف متحرّكة للإمام علي C ؟

ظاهرة المبدئية القصوى:

المؤرِّخون والباحثون ربما تناولوا سيرة الإمام علي C بشكل مستوعب، لكننا نريد أن نعثر على الصفة المشتركة باعتبارها ظاهرة في حركة الإمام علي C يمكن أن نُسمّيها (ظاهرة المبدئية القصوى)، أنت تجد هذه الظاهرة في سيرة الإمام علي C يوم انتقل بالفواطم إلى المدينة المنوّرة، كما تجدها في حروبه ومعاركه أيام رسول الله 9 ، وتجدها يوم ذهب قاضياً إلى اليمن حين بعثه رسول الله 9 ، وتجد هذه المبدئية القصوى في أعلى درجاتها حينما عاش مرحلة المعارضة المقاطِعة بعد رسول الله 9 ، وهكذا حتّى نصل إلى معاركه في الجمل وصفين والنهروان، هذه هي ظاهرة المبدئية القصوى.

لاحظوا، هناك سياستان:

الأولى: السياسة المبدئية.

الثانية: السياسة النفعية، أو (البرغماتية).

الإمام علي C برز بظاهرة المبدئية القصوى، وفي مقابل ذلك برز معاوية بن أبي سفيان بظاهرة (النفعية القصوى)، فكان هناك مبدئية بلا حدود، ومقابلها نفعيّة بلا حدود.

المبدئية تعني الالتزام بالمبادئ وعدم الانحراف عنها في المواقف السياسية.

والنفعية تعني البحث عن المنفعة مهما تقاطعت مع المبادئ.

معاوية برز بظاهرة النفعية القصوى، وهو ما يُصطلح عليه اليوم بـ (الميكافيلية)، ويؤكّد ذاك النصّ الذي ذكره معاوية وبقيَ على طول التأريخ محفوظاً له حين قال مخاطباً أهل العراق: (إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك، ولكنّي قاتلتكم لأتأمَّر عليكم)[١]، هذا نموذج النفعية المطلقة التي حكمت سياسة معاوية. وعلى عكس ذلك أمير المؤمنين C ، حيث كانت لديه ظاهرة (المبدئية المطلقة).

ماذا قال المعاصرون عن الإمام علي C حين سجّلوا في كلماتهم ظاهرة المبدئية القصوى؟

لقد قال رسول الله 9 : «علي مع الحقّ، والحقّ مع علي، يدور معه حيثما دار»[٢]، وقال: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، لا يفترقان حتّى يَردا عليَّ الحوض»[٣]، وهو ما لم يقله إلاَّ لعلي، فما معناه؟ معناه أنَّ

---

(١) الإرشاد ٢: ١٤؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ٤٦.

(٢) بحار الأنوار ١٠: ٤٥١؛ شرح نهج البلاغة ١٨: ٧٢.

(٣) أمالي الطوسي: ٥٠٦/ ح ١١٠٨/ ١٥؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٤.

الحقّ المطلق والمبدئية القصوى بأعلى درجاتها لا يفترقان، فقد كان «علي مع الحقّ، والحقّ مع علي، يدور معه حيثما دار»، هذا العمق في المبدئية حتّى أنَّ المبادئ تمشي مع علي، فكان هو أصل المبادئ، وهذا تصريح عظيم. ولو أنَّ المؤرِّخ والباحث أراد أن يقوِّم شخصية الإمام علي C بقطع النظر عن الاتجاه المذهبي لاستطاع أن يقول: هذا إنسان قال عنه رسول الله 9 : «علي مع الحقّ، والحقّ مع علي»، «علي مع القرآن، والقرآن مع علي»، وهذا لا تكاد توجد فوقه دلالة أقوى على المبدئية المطلقة لدى هذا الإنسان، هذا الإنسان لا ينحرف، ولا تزل قدمه، ولا يعثر لسانه عن الحقّ ولا لحظة واحدة، هذه المبدئية المطلقة القصوى.

الزهراء J سجَّلت هذه الظاهرة (المبدئية القصوى) للإمام علي C حينما قالت: «وتالله لو مالوا عن المحجَّة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجّة الواضحة، لردَّهم إليها، وحمَلَهم عليها، وسارَ بهم سيراً سجحاً _ هادئاً _ لا يكلَمُ حشاشُه، ولا يكلُّ سائره، ولا يَمِلُّ راكِبه، ولأورَدَهُم منهلاً نميراً صافياً رويّاً»، ثمّ تلت قوله تعالى: «[وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ][1]»[2].

الزهراء J تسجِّل للإمام C ظاهرة (الحقّانية المطلقة) في تصرّفاته السياسية، وهذه نُسمّيها ظاهرة (المبدئية القصوى).

والآن فلنستمع إلى تصوّرات الآخرين عن الإمام علي C . ماذا

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) الاحتجاج ١: ١٤٨.

يقول عمر بن الخطاب حينما جعل الخلافة شورى سداسية بين علي C ، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير؟ قال لهؤلاء النفر: اجتمعوا وانتخبوا منكم من يكون خليفةً للمسلمين، والكفَّة التي فيها عبد الرحمن بن عوف هي الكفة الراجحة، ثمّ جمعهم قبل وفاته بساعات، ثمّ قوَّم كلُّ واحدٍ من هؤلاء الستة واحداً واحداً، وأمير المؤمنين C ساكت، (وهذه القصة يذكرها ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة)[١].

وبعد أن قيَّمهم قال في الإمام علي C : (أما والله ـ وهو ملتفت إلى الإمام علي C ـ لئن وَلّيْتَهم لَتحمِلنَّهم على الحقّ الواضح، والمحجَّة البيضاء)، بينما قال في عثمان: (كأنّي بك قد قلَّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك، فحملت بني أميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً).

لقد جرح عمر بن الخطاب كلُّ هؤلاء الخمسة، عدا علياً C .

ثمّ تعالوا ننظر إلى الإمام علي C كيف يقيِّم نفسه حين يقول: «أما والله لأن أبيتُ على حَسَكِ السَعدانِ مسهّداً، وأجرَّ في الأغلالِ مُصفَّداً، أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ ألقى الله ورَسولَه يَومَ القيامةِ ظالماً لبعض العباد، وَغاصباً لشيء من الحطام، وكيفَ أظلِمُ أحداً لِنفس يسرع إلى البلى قفُولُها، وَيطول في الثرى حُلولها»[٢]،

---

(١) راجع: ج ١: ص ١٨٦.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢١٧/ رقم ٢٢٤.

ثـمّ يَسـتعرض قِصـةَ عقيـل مـع بناتـه حـين أقبـلَ يطلـبُ صـاعاً إضـافياً من بيت المال، والقصة معروفة(١).

وهـذه السياسـة اليـوم نُسـمّيها (المبدئيـة القصـوى)، منتهـى الرسـالية يومئذٍ، أو باصطلاح آخر تُسمّى (الخشونة في ذات الله).

الإمـام علـي C كـان خشـناً فـي ذا ت الله، ولهـذا كـان رسـول الله 9 في أكثر من موضع حين كان يسمع بعض الناس يشكو علياً C ، فيقول 9 :«لا تشكوا علياً، فوالله إنَّه لأخيشن في ذاتِ الله»(٢).

«إنَّـه لأخيشـن فـي ذات الله»، كـان هـذا هـو سـبب امتعـاض كثيـر مـن النـاس، خاصـة أولئـك الـذين فـي قلـوبهم مـرض، هـؤلاء النـاس أصـحاب مطامع وأصحاب أهواء ولا يقبلون سياسة المبدئية القصوى.

هذه هي كلمات المعاصرين للإمام علي C .

ننتقـل الآن إلـى الحـديث عـن نمـاذج تطبيقيـة للمبدئيـة القصـوى للإمام علي C ، نذكر هذه النماذج بشكل سريع وموجز:

النمـوذج الأوّل: الإمـام علـي C سـاوى فـي العطـاء حينمـا اسـتلم الحكـم، وغيَّـر آليـة توزيـع الميزانيـة التـي اتّبعهـا عمـر بـن الخطـاب حينمـا

(١) يقول C : «والله لقد رأيت عقيلاً، وقد أملق حتّى استماحني من برّكم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنَّما سوّدت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكّداً وكرَّر عليَّ القول مردّداً، فأصغيت إليه سمعي، فظنَّ أنّي أبيعه ديني وأتّبع قياده، مفارقاً طريقي، فأحميت له حديدة ثمّ أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضجَّ ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها. فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرّني إلى نار سجَّرها جبّارها لغضبه. أتئن من الأذى ولا أئن من لظى» (نهج البلاغة ٢: ٢١٧/ رقم ٢٢٤).

(٢) ذخائر العقبى: ٩٩؛ مسند أحمد ٣: ٨٦؛ بحار الأنوار ١٠٧: ٣١، وفي بعض الروايات: لأخشن.

كان خليفة، فقد عمل عمر بسياسة التمييز في العطاء، التمييز بين من هو مِن بني هاشم فيُعطى أكثر، ومن هو من غير بني هاشم فيُعطى أقل، التمييز بين من هو مهاجر، وبين من هو أنصاري، بين من هو عربي وبين من هو غير عربي، إذن كان العرب يستحقّون مخصّصات، مخصّصات مالية أكثر من مخصّصات من هو غير عربي، ولهذا ترون أنَّ القومية العربية اليوم هي قريبة إلى عمر بن الخطاب، لقد كان لديه هذه النزعة القومية، لعدّة سنوات عوَّد عمر بن الخطاب الناس على التمييز العنصري، فلمّا جاء الإمام علي C واستلم الحكم قال: العطاء سواسية، بيت المال للجميع على السواء، كلّهم سواء في العطاء، فأثار بذلك غيضَ الكثيرين، ممن تضاعفت ثرواتهم أيام عمر بن الخطاب؛ لأنَّ الأموال كانت تُعطى لهم بشكل أكبر، فارتفعت درجة الثراء عند قريش، وحين جاء الإمام علي C ساوى في العطاء.

النموذج الثاني: ردُّ جميع القطائع التي قَطَعها عثمان: إنَّ عثمان بن عفان لمّا استولى على الخلافة وزَّع بيت المال لأقربائه وعشيرته من الصحابة وغير الصحابة بلا حدود، هذه كانت تسمى قطائِع عثمان، بمعنى عطايا عثمان.

في اليوم الثاني لاستلامه الحكم أعلَنَ الإمام علياً C بأنَّ جميع قطائِع عثمان بن عفان مَردودة، فلا يوجد ذهب ولا سيف ولا فرس ولا أرض يُعطى إلى أحدٍ من الناس بدون استحقاق.

إنَّ سياسة مكرمة الخليفة أوّل من بدأها عثمان بن عفان، التاريخ يذكر هذا، وتُعرف عند المؤرِّخين بقطائع عثمان بن عفان، بحيث أصبحَ

بعض الصحابة يُكسِّر الذهب بالفؤوس من عطايا عثمان[1]، وحين جاء

(١) منهم: الزبير بن العوام، خلَّف كما في (صحيح البخاري ٥: ٢١/ كتاب الجهاد/ باب بركة الغازي في ماله): إحدى عشرة داراً بالمدينة، وداريـن بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر، وكان له أربع نسوة فأصاب كل امرأة بعد رفع الثلث ألف ألف ومائتا ألف. قال البخاري: فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف. وقال ابن الهائم: بل الصواب أنَّ جميع ماله حسبما فرض: تسعة وخمسون ألف ألف وثمانمائة ألف. وصرَّح ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما: بأنَّ الصواب ما قاله ابن الهائم، وإنَّ البخاري غلط في الحساب. كذا نجدها في صحيح البخاري وغيره من المصادر غير مقيّدة بالدرهم أو الدينار، غير أنَّ في تاريخ ابن كثير (ج ٧/ ص ٢٤٩) قيّدها بالدرهم. وقال ابن سعد في الطبقات (ج ٣/ ص ٧٧/ ط ليدن): كان للزبير بمصر خطط، وبالإسكندرية خطط، وبالكوفة خطط، وبالبصرة دور، وكانت له غلات تقدم عليه من أعراض المدينة. وقال المسعودي في المروج (ج ١/ ص ٤٣٤): خلَّف ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخططاً.

ومنهم: طلحة بن عبيد الله التيمي: ابتنى داراً بالكوفة تعرف بالكناس بدار الطلحتين، وكانت غلّته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وله بناحية سراة أكثر مما ذكر، وشيَّد داراً بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج. وعن محمّد بن إبراهيم قال: كان طلحة يغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار أو أكثر أو أقل. وقال سفيان بن عيينة: كان غلته كل يوم ألف وافياً. والوافي وزنه وزن الدينار. وعن موسى بن طلحة: إنَّه ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار... وعن سعدى أُمّ يحيي بن طلحة: قتل طلحة وفي يد خازنه ألفا ألف درهم ومائتا ألف درهم، وقوّمت أصوله وعقاره ثلاثة ألف ألف درهم. وعن عمرو بن العاص: أنَّ طلحة ترك مائة بهار في كل بهار ثلاث قناطر ذهب، وسمعت أنَّ البهار جلد ثور. وفي لفظ ابن عبد ربه من حديث الخشني: وجدوا في تركته ثلاثمائة بهار من ذهب وفضة. وقال ابن الجوزي : خلَّف طلحة ثلاثمائة جمل ذهباً. وأخرج البلاذري من طريق موسى بن طلحة قال: أعطى عثمان طلحة في خلافته مائتي ألف دينار. راجع: طبقات ابن سعد ٣: ١٥٨/ ط ليدن؛ الأنساب للبلاذري ٥: ٧؛ مروج الذهب ١: ٤٣٤؛ العقد الفريد ٢: ٢٧٩؛ الرياض النضرة ٢: ٢٥٨؛ دول الإسلام للذهبي ١: ١٨. \

[ومنهم: عبد الرحمن بن عوف الزهري، قال ابن سعد: ترك عبد الرحمن ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس ترعى بالبقيع، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً. وقال: وكان فيما خلَّفه ذهب قطع بالفؤوس حتّى مجّلت أيدي الرجال منه، وترك أربع نسوة فأصاب كل امرأة ثمانون ألفاً. وعن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن قال: صالحنا امرأة عبد الرحمن التي طلَّقها في مرضه من ربع الثمن بثلاثة وثمانين ألفاً. وقال اليعقوبي: ورثها عثمان فصولحت عن ربع الثمن على مائة ألف دينار. وقيل: ثمانين ألف. وقال المسعودي: ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ بعد وفاته ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً. راجع: طبقات ابن سعد ٣: ٩٦/ ليدن؛ مروج الذهب ١: ٤٣٤؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ١٤٦؛ صفة الصفوة لابن الجوزي ١: ١٣٨؛ الرياض النضرة لمحب الطبري ٢: ٢٩١.

ومنهم: سعد بن أبي وقاص، قال ابن سعد: ترك سعد يوم مات مائتي ألف وخمسين ألف درهم ، ومات في قصره بالعقيق. وقال المسعودي: بنى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات. طبقات ابن سعد ٣: ١٠٥؛ مروج الذهب ١: ٤٣٤.

ومنهم: يعلى بن أميّة، خلَّف خمسمائة ألف دينار. وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار. كذا ذكره المسعودي في مروج الذهب ١: ٤٣٤.

ومنهم: زيد بن ثابت المدافع الوحيد عن عثمان، قال المسعودي: خلَّف من الذهب والفضّة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلَّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار. راجع: مروج الذهب ١: ٤٣٤.

وأما ما اقتناه الخليفة لنفسه فحدّث عنه ولا حرج، كان ينضد أسنانه بالذهب، ويتلبَّس بأثواب الملوك. قال محمّد بن ربيعة: رأيت على عثمان مطرف خز ثمن مائة دينار، فقال: هذا لنائلة كسوتها إيّاه، فأنا ألبسه أسرّها به. وقال أبو عامر سليم: رأيت على عثمان برداً ثمنه مائة دينار. قال البلاذري: كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك وكلّموه فيه بكلام شديد حتّى أغضبوه، فقال: هذا مال الله أعطيه من شئت وأمنعه من شئت، فأرغم الله أنف من رغم. وفي لفظ: لنأخذنَّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام. فقال له علي: إذا تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه. وقال ابن سعد في الطبقات (ج ٣/ ص ٥٣/ ط ليدن): كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير بالربذة وصدقات ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار. (راجع: الغدير ٨ : ٢٨٦).

الإمام علي C أصدر البيان الثاني حين قال: «والله لو وجدتُه قد تُزوِجَ بهِ النساء، ومُلكت بهِ الإماء لَرددتُه، فإنَّ في العَدلِ سِعة، ومَن ضاق عليه العَدلُ فالجورُ عليهِ أضيق»[1].

هذا نموذج للمبدئية القصوى.

لقد خسِرَ الإمام علي C ولاء الكثير من الناس، حين استردَّ جميع الأموال من بني أميّة وغير بني أميّة، وتنامت ظغائن في القلوب.

وهكذا نجد أنَّ هذه المبدئية القصوى تتجسَّد في الإمام علي C في الكثير من القضايا، حتّى في السلوكيات الشخصية، بحيث أضحى الإمام علي C رمزاً للعدالة عند المسلم وعند المسيحي، عند العرب وعند غير العرب، حتّى لم يستطع أحد على طول التاريخ أن يسجِّل على الإمام علي C زلَّةً أو عدواناً أو زيغاً في موقف من المواقف.

ورغم أنَّ مدرسة الخلافة حاولت أن تجعل من عمر بن الخطاب رمزاً للعدالة فتتحدَّث عن خشونته ودرّته التي يعلو بها ظهر القريب والبعيد، لكنَّهم مع كل ذلك سجَّلوا عليه الكثير من الزلاّت والشطحات هنا وهناك، أمّا الإمام علي C فإنَّه لم يسجِّل المؤرِّخون عليه ولا زلَّة واحدة.

النموذج الثالث: الإمام علي C كان رمزاً للعدالة حتّى في سلوكه الشخصي، وحتّى مع أعدائه، وفي حروبه. في صفين حين قطع معاوية الماء عن جيش العراق وأصبح جيش العراق يواجهون العطش

---

(١) نهج البلاغة ١: ٤٦/ رقم ١٥.

والهلاك، وقال لهم الإمام علي C : «روّوا السيوف من الدماء ترووا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين»[١]، وحملوا حملةً واحدة على جيش الشام واحتلوا مواقع الماء، فقال له أصحابه وشيعته: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك، ولا تسقهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضاً بالأيدي، فلا حاجه لك إلى الحرب، فقال C : «لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم، افسحوا لهم عن بعض الشريعة، ففي حدِّ السيف ما يغني عن ذلك»[٢]، صحيح أنَّنا في حرب، لكن حقّ الإنسان في الماء حقّ مشترك حتّى للحيوان، وهو يعلم بأنَّه لو قطع عنهم الماء ليوم أو ليومين لتراجع جيش الشام، لكنَّه لم يفعل.

ويمكننا أن نذكر نماذج كثيرة في ظاهرة المبدئية القصوى لدى الإمام علي C .

المبدئية القصوى لدى الإمام الحسين C :

ننتقل إلى الإمام الحسين C ، لنعقد المقارنة بينه وبين الإمام علي C في هذه الظاهرة. هل كان مبدئياً في درجة قصوى أم لا؟

المبدئية لم تبتعد عن الإمام الحسين في كل حركته، حركة الإمام الحسين C أيضاً شهدت تنوّعاً في التجربة، رغم أنَّ ثورة كربلاء هي التي أصبحت عنواناً لحركة الإمام الحسين C ، لكن الإمام الحسين C في الحقيقة لديه تنوّع في التجربة، لقد عاش الإمام الحسين C في طفولته وصباه مع رسول الله 9 ، وبعد ذلك عاش أيّام حكم أبي

(١) نهج البلاغة ١: ١٠٠/ رقم ٥١.

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤.

بكر، وبعد ذلك أيّام عمر بن الخطاب، وبعد ذلك أيّام عثمان، وبعد ذلك على عهد حكومة الإمام علي C ، وبعد ذلك على عهد الإمام الحسن C التي استغرقت أيّامه مع معاوية خمسة عشر عاماً، ثمّ بعدها بعشر سنوات نهض الإمام الحسين C في كربلاء.

الإمام الحسين C عاش زمن معاوية، ثمّ بعد هلاك معاوية ومجيء يزيد كانت ثورة كربلاء عام ٦١ للهجرة.

في كل تلك السنين الطوال، كيف كانت سياسة الإمام الحسين C ؟

هنا أيضاً نسجّل ظاهرة المبدئية القصوى.

مع الإمام الحسن C :

لقد كان الإمام الحسين C خاضعاً للإمام الحسن C خلال خمسة عشر عاماً، حين كان الإمام الحسن C هو الإمام الشرعي، سواء في حربه أو في صلحه مع معاوية؛ لأنَّ المبدئية القصوى كانت تقتضي الخضوع والطاعة.
وبعد استشهاد الإمام الحسن C ، حينما جيء بجنازته واجتمع بنو مروان وبنو أميّة وقالوا وقالت عائشة: تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحبّ!؟، أرادَ بعضُ بني هاشم أن يدخلوا في معركة، لكن الإمام الحسين C كان موجوداً، فما كان موقفه؟ فاستحقاقات القضية أن يدخل في معركة! وهو قادر أن يدخل معركة، لكنَّه لم يدخل، لماذا؟

بعد الإمام الحسن C :

المبدئية القصوى هي التي فرضت عليه السكوت حين قال C : «والله لولا عهد الحسن إليَّ بحقن الدماء، وأن لا أهريق في أمره محجمة دم، لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها»، فانسحب الإمام

الحسين وانسحب بنو هاشم[١]. وهكذا نجد الإمام الحسين C بعد

(١) روى عبد الله بن إبراهيم عن زياد المخارقي قال: لمّا حضرت الحسن C الوفاة استدعى الحسين بن علي H فقال: «يا أخي، إنّي مفارقك ولاحق بربي ﷻ، وقد سقيت السم ورميت بكبدي في الطست، وإنّي لعارف بمن سقاني السم، ومن أين دهيت، وأنا أُخاصمه إلى الله تعالى، فبحقّي عليك إن تكلّمت في ذلك بشيء، وانتظر ما يحدث الله عزَّ ذكره فيَّ، فإذا قضيت فغمّضني وغسّلني وكفّني واحملني على سريري إلى قبر جدّي رسول الله 9 لأجدّد به عهداً، ثمّ ردّني إلى قبر جدّتي فاطمة بنت أسد رحمة الله عليها فادفني هناك. وستعلم يا ابن أُمّ أنَّ القوم يظنّون أنّكم تريدون دفني عند رسول الله 9 فيجلبون في منعكم عن ذلك، وبالله أقسم عليك أن تهريق في أمري محجمة دم»، ثمّ وصّى C إليه بأهله وولده وتركاته، وما كان وصّى به إليه أمير المؤمنين C حين استخلفه وأهله لمقامه، ودلَّ شيعته على استخلافه ونصَّبه لهم علماً من بعده. فلمّا مضى C لسبيله غسَّله الحسين C وكفَّنه وحمله على سريره، ولم يشكّ مروان ومن معه من بني أميّة أنَّهم سيدفنونه عند رسول الله 9 ، فتجمَّعوا له ولبسوا السلاح، فلمّا توجَّه به الحسين بن علي H إلى قبر جدّه رسول الله 9 ليجدِّد به عهداً أقبلوا إليهم في جمعهم، ولحقتهم عائشة على بغل وهي تقول: ما لي ولكم، تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحبّ. وجعل مروان يقول: يا ربّ هيجا هي خير من دعة، أيدفن عثمان في أقصى المدينة، ويدفن الحسن مع النبي؟! لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف. وكادت الفتنة تقع بين بني هاشم وبني أميّة، فبادر ابن عبّاس إلى مروان فقال له: ارجع يا مروان من حيث جئت، فإنّا ما نريد أن ندفن صاحبنا عند رسول الله 9 لكنّا نريد أن نجدِّد به عهداً بزيارته، ثمّ نردّه إلى جدّته فاطمة J فندفنه عندها بوصيّته بذلك، ولو كان وصّى بدفنه مع النبي 9 لعلمت أنَّك أقصر باعاً من ردّنا عن ذلك، لكنَّه C كان أعلم بالله ورسوله وبحرمة قبره من أن يطرق عليه هدماً كما طرق ذلك غيره، ودخل بيته بغير إذنه. ثمّ أقبل على عائشة فقال لها: وا سوأتاه! يوماً على بغل ويوماً على جمل، تريدين أن تطفئي نور الله، وتقاتلين أولياء الله، ارجعي فقد كفيت الذي تخافين وبلغت ما تحبّين، والله تعالى منتصر لأهل هذا البيت ولو بعد حين.

وقال الحسين C : «والله لولا عهد الحسن إليَّ بحقن الدماء، وأن لا أهريق في أمره محجمة دم، لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها، وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا».

ومضوا بالحسن C فدفنوه بالبقيع عند جدّته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف رضي الله عنها وأسكنها جنات النعيم. (الإرشاد ٢: ١٩).

الإمـام الحسـن C ، عشـر سـنوات عاصـر معاويـة ولـم يُثِـر عليـه حربـاً، لماذا؟

لأنَّ هنـاك بنـود معاهـدة الإمـام الحسـن C مع معاويـة، التـي تقـول إنَّ الخلافـة بَعـدَ معاويـة تكـون للحسـن، ثـمّ للحسـين C ، فالإمـام الحسـين C محكوم بهذا العهد، أنَّ الحكم بعد معاوية للحسن C وإذا مات الحسن C فالحكم بعد معاوية للحسين C . فصبر الإمام الحسين C عشر سنوات، ولَم يَثُر على معاوية، وبقطع النظر عن أيّ تحليل سياسي، بل هو الالتزام الأخلاقي بالعهد الذي قطعه الإمام الحسن C ؛ لأنَّ هذا العهد ذمّة شرعيّة، فلا يمكن أن يأتي الحاكم الثاني ويمزّق هذه العهود الماضية.

عصر الثورة:

وبعد هلاك معاوية جاءت الثورة الحسينية، وهي أيضاً تعبير عن مبدئية قصوى، حيث كان الإمام الحسين C يَعلم بأنَّه يُقتل، وهناك رأي في هذه المسألة، فبعض كتّاب الشيعة، يقولون: إنَّ الإمام الحسين C لم يكن يعلم بأنَّه يقتل. لكن الرأي الذي يميل له علماء الشيعة ومؤرِّخوهم بشكل واسع جدّاً هو أنَّ الإمام الحسين C كان يعلم بمقتله، وأنَّ رسول الله 9 كان قد أخبره بمقتله[1]، وليس الحسين وحده كان يعلم بمقتله، بل حتّى من كان مع الحسين

(١) روى ذلك جمهور الخاصة والعامة، منها: ما روي عن أُمّ سَلَمَة قالت: إنَّ رسول الله 9 اضطجع ذات ليلة للنوم، فاستيقظ وهو حائر، ثمّ اضطجع، فرقد ثمّ استيقظ وهو حائر دون ما رأيت به المرة الأولى، ثمّ اضطجع فاستيقظ وفي يده تربة حمراء يقبّلها، فقلت: ما هذه التربة يا رسول الله؟ قال: «أخبرني جبريل أنَّ هذا يقتل بأرض العراق - للحسين -، فقلت لجبريل: أرني تربة الأرض التي يقتل بها، فهذه تربتها». رواه الحاكم في مستدركه ٤: ٣٩٨، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين - البخاري ومسلم - ولم يخرجاه.
\

أيضاً، أُمّ سَلَمَة كانت تعلم بذلك، محمّد بن الحنفية كان يعلم بذلك، ابن عبّاس كان يعلم بذلك، القضيّة كانت مكشوفة وواضحة، لقد كان رسول الله 9 يتحدَّث عن قتل الحسين C في كربلاء، لكن المبدئية القصوى هي التي فرضت على الحسين أن يهاجر إلى كربلاء، حتّى وإن كان في ذلك مقتله، لماذا؟

لأنَّ المبادئ فرضت عليه ذلك، فقال C : «لا والله، لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد»(1)، هذه معركة مبادئ، هذه مبدئية قصوى لدى الإمام الحسين C . لاحظوا أنَّ الإمام الحسين C في الطريق التقى بخيمة، وفي تلك الخيمة شيخ من مشايخ العراق اسمه (عبيد الله بن الحر الجعفي)، ويبدو أنَّه من شيوخ الكوفة وأثريائهم، الإمام الحسين C ذهب إليه ودعاه إلى نصرته، فاعتذر وقال: والله يا ابن بنت رسول الله! لو كان لك بالكوفة أعوان يقاتلون معك لكنت أنا أشدّهم على عدوك، ولكنّي رأيت شيعتك بالكوفة وقد لزموا منازلهم خوفاً من بني أميّة ومن سيوفهم، فأنشدك بالله أن تطلب منّي هذه المنزلة، وأنا أُواسيك بكل ما أقدر عليه، وهذه فرسي ملجمة، والله ما طلبت عليها شيئاً إلاّ أذقته حياض الموت، ولا طُلِبت وأنا عليها فلُحقت، وخذ سيفي هذا، فوَالله ما ضربت به إلاّ قطعت.

فقال له الحسين C : «يا بن الحر! ما جئناك لفرسك وسيفك،

[ومنها: عن عائشة أو أُمّ سَلَمَة أنَّ النبي 9 قال لإحداهما: «لقد دخل على البيت مَلَك لم يدخل عليَّ قبلها، قال: إنَّ ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء» رواه أحمد في مسنده ٦: ٢٩٤.

(١) الإرشاد ٢: ٩٨.

إنَّما أتيناك لنسألك النصرة، فإن كنت قد بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في شيء من مالك، ولم أكن بالذي اتّخذ المضلّين عضداً؛ لأنّي قد سمعت رسول الله 9 وهو يقول: من سمع داعية أهل بيتي ولم ينصرهم على حقّهم إلاَّ أكبَّه الله على وجهه في النار»[1].

كان يمكن للإمام الحسين C أن يدخل معه بمشادة كلاميّة، لكنَّه كان مخلصاً لمن والاه، ومخلصاً أيضاً لمن قاطعَهُ.

المبدئية القصوى للإمام الحسين C تتجلّى في عدّة مواضع، ومنها اصطحابه للنساء.

الإمام الحسين C كان دخوله إلى كربلاء في اليوم الثاني من محرم الحرام، وكانت حركته من المدينة المنوّرة في الثاني والعشرين من رجب، وبقي في مكّة مدّة شعبان، ورمضان، وشوال، وذي الحجة، وفي أوائل ذي الحجة تَحَرَّكَ إلى العراق.

الإمام الحسين C في حركته _ كما هو ثابت تاريخياً _ اصطحب أهل بيته بما فيهم النساء والأطفال، وهذا أصبح مُدعاةً للتساؤل؟

لماذا اصطحب النساء؟ رجل يريد أن يقود ثورة، ويدخل في معركة مسلَّحة، وهو لا يدري بحسب المسارات التاريخية هل سينتصر أو لا ينتصر، محمّد بن الحنفية سأله قائلاً: يا أخي، إنَّ أهل الكوفة من قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنَّك أعزُّ من في الحرم وأمنعه. فقال: «يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي يُستباح به حرمة هذا البيت»، فقال له ابن الحنفية:

(١) راجع: الفتوح لابن أعثم ٥: ٧٤.

فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البر، فإنَّك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد، فقال: «أنظر فيما قلت». فلمّا كان السحر ارتحل الحسين C ، فبلغ ذلك ابن الحنفية فأتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها. فقال له: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟ قال: «بلى»، قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟ فقال: «أتاني رسول الله 9 بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين، اُخرج، فإنَّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً»، فقال له ابن الحنفية: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟ فقال له: «قد قال لي: إنَّ الله قد شاء أن يراهنَّ سبايا» وسلَّم عليه ومضى[١].

فليست المسألة مسألة تحليل واجتهاد، بل هو تكليف إلهي، فإنَّ زينب J كان لها دور كبير في مجلس ابن زياد ومجلس يزيد فيما بعد، كانت هناك أدوار كبيرة قام بها الركب الحسيني بعد شهادته، لكن لم يكن هو منطلق التحرّك بالأصل، إنَّه بالحساب السياسي يُفترض أنَّ النساء إذا أصبحن سبايا فيمكن أن تباع النساء في مجلس ابن زياد وينتهي كل شيء، لذا فإنَّ الإمام الحسين C كان يعتمد مبدأ آخر في الحركة، أنَّ المسألة بالنسبة له هي تكليف من أعلى، «شاءَ الله أن يراهُنَّ سبايا».

الحسين C رجل مهاجر من دولة إلى دولة، ويومئذٍ فإنَّ الهجرة في غاية الصعوبة، وهو يريد أن يواجه سلطاناً عاتياً يبطش به، فما معنى أن يأخذ ركباً من النساء والأطفال؟ هذه هي المبدئية القصوى.

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

* * *

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٠.

(٢ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة الثانية:

الإمام علي C

سلامة الأهداف وسلامة الوسائل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أمير المؤمنين C : «أتأمرونني أن أطلبَ النصرَ بالجورِ في مَنْ وُلِّيتُ عليه!؟ واللهِ لا أطورُ بِهِ ما سَمَرَ سَمير[1]، وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً، لو كانَ لي المال لسوَّيتُ بَينهم، فكيفَ وإنَّما المالُ مالُ الله؟ ألا وإنَّ إعطاءَ المال في غَير حَقِّهِ تبذيرٌ وإسرافٌ، وهو يرفع صاحبهُ في الدنيا ويَضَعُهُ في الآخرة»[2].

الظاهرة التي سَيطَرَت على المشروع الحَرَكي والتغييري للإمام علي C سواءً في العمل السياسي، أو التربوي، أو الاجتماعي، أو الديني هي ظاهرة المبدئية القصوى، وحديثنا في هذا الموضوع ينقلنا إلى سؤال هو:

ما هي نظرية الإسلام في العلاقة بين الغايات والوسائل؟

النظرية الإسلاميّة:

الإنسان لديه هدفٌ مقدَّس، ولديه غايةٌ مقدّسةٌ، لكن الوسائل تختلف، فقد تكون وسائل شريفة مقدَّسة، وقد تكون وسائل غير مقدّسة.

نظريةُ الإسلام ما هي؟

هل يمكن أن نطلب أهدافنا المقدّسة بوسائل غير مقدّسة؟

نشتري ضمائراً، نعطي أموالاً، نعتدي، نتجاوز على الحقوق الشخصية بحجّة أنَّ الأهداف مقدَّسة، هل يجوز ذلك؟

---

(١) ما أطور به: من طار يطير: حام حول الشيء، أي ما أمر به ولا أُقاربه، مبالغة في الابتعاد عن العمل بما يقولون. وما سَمَرَ سمير: أي مدى الدهر.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٦/ رقم ١٢٦.

هـذا بحـث فقهـي فـي النظريـة السياسـية الإسـلاميّة، وهنـا نكتفـي بالإشارة الموجزة للنظرية الإسلاميّة.

هناك نظرية معروفة تقول: (إنَّ الغايات تبرر الوسائل)، فإذا كانت أهدافك مشروعة سامية فلا مانع أن تصل إليها بأيّة وسيلة، أنتَ تُريد أن تبني مسجداً مثلاً، فما دامت الأهداف جيّدة فلا مانع أن تكون أموالك غير شرعيّة، هذه هي النظرية (الميكافيلية) التي لا تهتم بالوسائل كيفما كانت.

لكـن الإسـلام لديـه نظريـة أخـرى، وهـي: (ضـرورة سـلامة الأهـداف وسـلامة الوسـائل)، أنَّ الهـدف الجيّـد يجـب أن تكـون واسـطته ووسـيلته جيّـدة أيضـاً، فمـثلاً أنـت تـذهب زائـراً للإمـام الحسـين C ، فيجـب عليـك أن لا تَركـب سـيّارة مغصـوبة، أو تـذهب إلـى الحـجّ، فـلا يجـوز أن تكـون أموالـكَ غيـر مُزكّـاة بذريعـة أنَّـك ذاهـب لحـجّ بيـت الله الحـرام، هـذه غايـة جيّـدة، لكـن الوسيلة لا بـدَّ أن تكـون جيّـدة، هـذه النظريـة هـي نظريـة (سـلامة الأهداف وسلامة الوسائل).

وهنـاك استثناء طبعاً، وهـو حـالات الضـرورة، حـالات لا يمكـن تحقيـق الهدف إلاَّ بواسطة غير سليمة، مثل ذلك الإنسان المريض الذي يكون علاجه متوقّفاً على دواء غير طاهر أو دواء مُسكر، ويقول له الطبيب: يجب أن تستعمل هذا الدواء أو تموت، فحينها يجوز أن يستعمل الدواء.

الفقهـاء يـذكرون مثـالاً آخـر، وهـو: أنَّـه حينمـا تشـاهد شخصـاً يغـرق فـي نهـر وأنـت لا تسـتطيع إنقـاذه إلاَّ أن تمـرَّ داخـل بسـتان، لكـن صـاحب البستان لا يسمح لك أن تدخل البستان، فما هو تكليفك أنت؟

الفقهـاء يقولـون: اُعبـر الجـدار وادخـل البسـتان، وإنْ لـم يـرضَ صـاحب البسـتان، وذلـك مـن أجـل أن تنقـذ الغريـق، لأنَّ الـنفس المحترمـة أهـم مـن حـقّ

صاحب البستان، وهذه الاستثناءات تتحدَّد بقانون الضرورة، وبمبدأ أسموه: (تقديم الأهم على المهمّ)، وهذا بحث واسع في المجال الفقهي.

في النصّ الذي قرأناه فإنَّ الإمام علي C أعطى قاعدة حين قال: «أتأمرونني أن أطلبَ النصرَ بالجورِ»، تريدون أن أحقّق الأهداف بوسائل غير مشروعة!؟ لا يجوز ذلك.

أنت تريد أن تكسب الأصوات الانتخابية، وأنت إنسان وطني، مخلص، متديِّن، وأولى بالحكم من غيرك، لكن هل يجوز لك أن تصل إلى الحكم بوسائل غير شرعية؟ من قبيل الدعاية الكاذبة، أو شراء ضمائر الناس بالأموال؟

الإسلام يقول: لا يجوز هذا العمل، إذا كانت الأهداف صحيحة، فالوسائل يجب أن تكون صحيحة كذلك.

الإمام علي C عُوتب على التسوية في العطاء؛ لأنَّ عثمان عوَّد الناس على بذل الأموال، فأضحى كل واحد لديه أموال طائلة من بيت المال، ومن قبله عمر بن الخطاب عوَّد قريش على سياسة التفاضل في العطاء، ولكي لا تتأذّى قريش، ولا العرب، ولا المهاجرين فعليه أن يتّبع نفس تلك السياسة.

هذه وقفة بسيطة في مسألة العلاقة بين الأهداف والوسائل، واتخذنا من سياسة الإمام علي C نموذجاً لذلك في ظاهرة (المبدئية القصوى).

لعلَّك تقول: إنَّ في الإسلام سهماً للمؤلفة قلوبهم وأمثلة أخرى قد تكون شاهداً على أنَّ الإسلام لا يرفض سياسة استخدام المال لتحقيق انتصارات سياسية.

فنقـول: هـذا صـحيح، لكـن بحـدود مـا حـدَّده الله تبـارك وتعـالى، فهنـاك أولويـات رسـمها الله تعـالى، تلـك الأولويـات التـي نـزل بهـا التشـريع مقبولـة، أمّـا الأولويـات التـي نرسـمها نحـن علـى أسـاس قـومي، أو عرقـي، أو عشائري، أو جغرافي، أو زمني، فهذا غير مقبول.

هل خسر الإمام علي C :

لـدينا هنـا سـؤال يـرتبط بالمبدئيـة القصـوى، يقـول: إنَّ هـذه السياسـة المبدئيـة هـي التـي جعلـت الإمـام علـي C يخسـر التجربـة، ويفشـل فـي مشـروعه السياسـي، فعمـر بـن الخطـاب جعـل الخلافـة شـورى فـي سـتة أشـخاص، وهـم: علـي، وعثمـان، وطلحـة، والزبيـر، وعبـد الـرحمن بـن عـوف، وسـعد بـن أبـي وقـاص، وأمـر خمسـين أنصـارياً أن يحيطـوا بالبيـت الـذي اجتمعـوا فيـه، وأن لا ينصـرفوا حتّـى يتّفـق هـؤلاء الستة علـى أحـدهم خليفـةً، وإن لم يتّفقوا تُضرب أعناقهم جميعاً!

فـاجتمعوا، فكـان أن وهـب طلحـة حقّـه لعثمـان، ووهـب الزبيـر حقّـه لعلي، وأما سعد بن أبي وقاص فقد وهب حقّه لعبد الرحمن بن عوف.

فقال عبد الرحمن: أمّا أنا فأُسقِط حقّي على أن أختار أحدكم.

فتوجَّـه إلـى علـي فقـال لـه: امـدد يـدك أبايعـك علـى أن تعمـل بكتـاب الله وسُنّة رسوله وسيرة الشيخين.

قــال C : «بــل علــى كتــاب الله وسُــنّة رســوله واجتهــاد رأيــي»، فأعادهـا عليـه عبـد الـرحمن بـن عـوف، فأجابـه C بـنفس الجـواب، وكـان السـؤال والجـواب يتكـرّر للمـرّة الثالثـة، فلمّـا رأى عبـد الـرحمن ذلـك التفـت إلـى عثمـان وقـال لـه: امـدد يـدك أبايعـك علـى أن تعمـل بكتـاب الله وسُـنّة

رسوله وسيرة الشيخين، فمدَّ يده، فصفق على يد عثمان وقال له: السلام عليك يا أمير المؤمنين(١).

وحينئذٍ نُزعت الخلافةُ من علي C وذهبت إلى عثمان.

السؤال يقول: لماذا لم يقم الإمام بعملية مناورة سياسية؟ ربّما كان عليه أن يقبل البيعة ثمّ يفعل ما يشاء بعد ذلك.

الجواب: أنَّ هذا الموضوع مرتبط بسياسة (الغاية لا تبرّر الوسيلة)، وكذلك ظاهرة (المبدئية القصوى) التي لا تسمح للإمام أن يعتمد سياسة المخادعة.

هناك رأي سياسي يقول: إنَّ الإمام علي C حتّى لو كان قد قبل الخلافة على أن يعمل بسيرة الشيخين، فإنَّه بمجرد أن يقوم بأدنى حركة تغييرية فسوف تنقض عليه قريش قائلين له: إنَّك خالفت سيرة الشيخين، فمهما فَعَلَ علي C فإنَّ قريش لا ترضى به، عُمَر بن الخطاب قال لابن عبّاس يوماً: (إنَّ قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة... إنَّهم لينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره)(٢).

لو كان الإمام علي C يقبل بسيرة الشيخين فإنَّ قريش ستقوم بعملية تمرّد ما أن يخرجوا من الاجتماع، لسبب من الأسباب، أليس قد طالب معاوية بدم عثمان وقاد حركة التمرّد بعد الإجماع على بيعة علي C ؟ أليس طلحة والزبير بايعوا علياً C ثمّ كان التمرّد؟ إذن المسألة غير قابلة للحل من خلال مناورة سياسية، والإمام علي C أدرك هذه

(١) راجع: شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ١٨٩.

الحقيقة، ولو قد قَبِل بسيرة الشيخين فإنَّ هذا الموقف سيخلّده التأريخ، وسيكون ذلك دليلاً شرعياً على اعتبار سيرة الشيخين مصدراً للتشريع، وهذا ما لا يمكن أن يقبله الإمام علي C .

إنَّ مصادر التشريع لدينا هي القرآن والسُنّة، وأمّا سيرة الشيخين، أو سيرة الصحابة فهي بالنسبة لنا لا تُمثّل مصدراً تشريعياً، اجتهادهم لا يمثّل حجّة علينا، لذلك فإنَّ الإمام علياً C لا يمكن أن يسجّل إمضاءً لتشريع مرفوض، وعلى كل الأحوال هذا الأمر ذكرناه في سياق مبدئية الإمام علي C القصوى، وأنَّ الغاية لا تبرِّر الوسيلة.

والرواية الجميلة هنا: أنَّه لمّا بايع عبد الرحمن بن عوف عثمان، قال له الإمام علي C : «والله أنَّك ما فعلتها إلاَّ لأنَّك رَجَوتَ منه ما رجا صاحبكما من صاحبه»، يعني أنت لم تبايعه إلاَّ لتصبح الخلافة لك من بعده، ثمّ دعا عليه وقال: «دقَّ الله بينكما عِطرَ مَنْشِم»[1]. (ومنشِم هي امرأة كانت بمكَّة عطّارة، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيّبوا من طيبها، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم، فكان يقال: أشأم من عِطر منشِم، فصار مثلاً)[2].

وبالفعل ما أن تمَّت هذه العملية حتّى كانت القطيعة بين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، ومات بغير صلةٍ بينهما.

عُمَر والتشيّع:

الكاتب حسن العلوي له كتاب اسمه (عُمَر والتشيّع)، في هذا الكتاب يحاول أن يصل إلى نتيجتين:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) صحاح الجوهري ٥: ٢٠٤١.

النتيجة الأولى: أن يؤكّد العلاقة الايجابية بين عمر وعلي.

النتيجة الثانية: أنَّ العراق يجب أن يكون عُمَرياً، وأنَّ حُبَّ عُمَر مِن حُبِّ العراق؛ لأنَّ عمر بن الخطاب هو الذي فَتَحَ العراق، وحرَّر العراق من الإمبراطورية الفارسية، إذن العراقيون مدينون لعُمر بن الخطاب، ويجب أن يفوا لعمر فيكونوا عمريين.

من ناحية أقول بأنَّ هذا الكاتب لا ينطلق من منطلق مذهبي كما عبَّر هو عن ذلك، ومن ناحية أخرى _ وذلك من حُسن الظنّ _ ربّما يهدف إلى أن يجعل تقارباً بين السُنّة والشيعة في العراق. لكن الحقيقة أنَّ هذه الأفكار هي أفكار خاطئة، ولا أريد مناقشتها من بُعد مذهبي، وإنّما أنا بصدد المناقشة التاريخية.

أوّلاً: كيف نقرأ العلاقة بين علي وعمر بن الخطاب؟

ثانياً: كيف نقرأ العلاقة بين العراقيين وعمر بن الخطاب؟

وهذه كلّها في سياق تأكيد ما هو واضح في تجربتنا السياسية وشعارنا الوطني، أنَّ العراق كان علوياً أو كان غير علوي، لكن الشيعة يحتضنون المذاهب الأخرى وأبناء المذاهب الأخرى، وأنَّ التقارب هو الذي رفع الشيعة لواءه ورايته، لا حاجة لأن نحرِّف التأريخ من أجل تقارب، الحقائق التاريخية يجب أن تبقى، فما هو الخطأ الذي ارتكبه هذا الأستاذ؟

الخطأ الأوّل: خطأ تأريخي، حيث إنَّه اعتمد على أدبيّات السُلطة، ونسيَ أدبيات المعارضة، هذا الكاتب اعتمد على أدبيات السلطة، المجد والثناء والإشادة بشخصية عمر بن الخطاب، بعيداً عمّا تقوله المعارضة وما يقوله الرأي الآخر الذي كان موجوداً، لكنَّه كان مُحارباً ومُطارداً

سياسياً. لو أراد كاتب في عصرنا هذا أن يعتمد على أدبيات الحكومة السابقة لمعرفة وتقييم شخصية صدام ماذا سيجد؟ يجد المجد، والمكرمات، والحِكمة، والبطولة، والعروبة، والشجاعة، والصلاة، والقرآن، ويجد أمامه أسطولاً من المكارم، هذه هي أدبيات السلطة، لكن الباحث التاريخي لا يمكن أن يعتمد على أدبيات السلطة فقط، بل يجب أن يراجع أدبيات المعارضة أيضاً، لقد كان الشيعة والأئمّة من أهل البيت G يمثّلون المعارضة، فتعالَ أيّها الكاتب وانظر إلى أدبيات السُلطة يومئذٍ ماذا قالت؟ وإلى أدبيات المعارَضة ماذا قالت؟ وحينئذٍ سوف تجد أن العلاقة بين علي وعمر هي علاقة على غير ما رسمته.

الخطأ الثاني: قوله: إنَّ العراق استحقاقه التاريخي أن يكون عراقاً عُمَرياً، وأنَّ حبّ العراق من حبِّ عمر، وحبُّ عُمر مِن حُبِّ العراق، نحن نعتقد أنَّ هذه القضية خاطئة سياسياً، كما هي خاطئة موضوعياً، إنَّ عمر بن الخطاب هو الذي فتح العراق، وفتح بلاد الشام، وفتح فلسطين، ثمّ استمرت الفتوحات على العهد الأموي، واستمرت على العهد العبّاسي، حتّى وصل العالم الإسلامي إلى بلاد الصين، ومشارف أوربا، ودخلت اسبانيا في الفتوحات، فهل تفرض هذه الفتوحات أن يكون المسلمون فيها مدينين لمثل هارون الرشيد والمأمون ومروان وأمثالهم؟ هل القضيّة هكذا تُقاس؟ في حكومة عمر فُتِحَ العراق نعم، وفُتحت بلاد فارس، وفتحت بلاد أخرى، لكن يبقى سؤال تاريخي: لماذا العراق كان وإلى اليوم عراقاً علوياً؟ فأكثرية العراق هم شيعة أهل البيت G ، رغم كل ما جرى عليه، لماذا؟ ولماذا أهل البيت G كان لديهم حنين

خاص نحو العراق؟ لماذا الإمام علي C تَرَكَ المدينة وجاء للعراق وكان منطلقه من العراق؟ ما هذا الولاء بين الشعب العراقي والأئمّة الأطهار G ؟ العراق علوي تأريخياً، وهو اليوم علوي وسيبقى علوياً.

هذا يحتاج إلى تحليل، ولا نريد أن نتناول هذا الموضوع من منظور سياسي وإنَّما من منظور تاريخي، وحتّى معركة الجمل، فقد جاء طلحة والزبير مع ستمائة رجل من المدينة المنوّرة واحتلوا البَصرة وغلبوا أهلها، ولم يكن أهل البصرة ضدّ الإمام علي C .

قراءتان للهويّة العراقية:

الحقيقة أنَّ هناك قراءتان للعراق:

١ _ القراءة الأموية للعراق.

٢ _ القراءة العلوية للعراق.

القراءة الأموية هي الذم والنقد للعراقيين، واعتبارهم أهل غدر وأهل شقاق ونفاق.

والقراءة العلوية هي أنَّ شعب العراق هو محبوب أهل البيت G ، وهو رصيدهم، وقد ورد النهي عن ذم أهل العراق، وهذا بحث في غاية السعة، ونحن عشنا ألف وأربعمائة سنة في ظل أدبيات السلطة الأموية والعبّاسية والعثمانية المعادية للعراق والعراقيين، وحتّى وصلنا إلى عهد صدام الذي اعتبر الشيعة قادمين من بلاد الهند!! ولهذا فقد أصبحت الصورة مشوَّهة، ولكن إذا نظرنا إلى القراءة العلوية لشيعة العراق فسوف نجد (السيد ابن طاووس) وهو مُعتمد أهل الحديث، في كتابه (مُهَج الدعوات) يقول: (ومِن صفات الداعي أن لا يدعو على أهل العراق، فإنّي رَوَيت في الجزء الأوّل من كتاب (التجميل) أنَّ الله تعالى

أوحى إلى إبراهيم أن لا يدعو على العراق)[١]، وهذه الرواية فقط تكفينا للتمييز بين القراءة الأموية للعراق والقراءة العلوية، نعرف من ذلك ما يأتي من ذَم ضدّ العراق والعراقيين أنَّ له أصابع سلطوية، ويجب أن نبحث المسألة بحثاً موضوعياً عميقاً.

سياسة الحسين C :

لنعد إلى أصل موضوع البحث، وهو ظاهرة (المبدئية القصوى)، سنجد هذه الظاهرة بارزة لدى الإمام الحسين C ، لا وجود لمبدأ (الغاية تبرِّر الوسائل)، كما كان يفعل الآخرون، هناك مبدئية قصوى استخدمها الإمام في كل مراحل حياته، وبهذا الصدد نعجب لكاتب كبير وهو الشيخ (محمّد الخضري) المصري وله كتاب (محاضرات في تاريخ الأمم الإسلاميّة) لاحظوا كيف يقيّم حركة الإمام علي C ، وكيف يقيم حركة الحسين C ؟ يقول عن حركة الإمام علي أنَّها حركة بدوافع شخصية، ونزاع على السلطة بين علي ومعاوية، وحينما يصل إلى الإمام الحسين C يقول: (وعلى الجملة فإنَّ الحسين أخطأ خطأ عظيماً في خروجه الذي جرَّ على الأمّة وبال الفرقة والاختلاف، وزعزع عماد أُلفتها إلى يومنا هذا)، وهذا الكتاب _ مع الأسف _ يُدرَّس لأولادنا في المدارس والمناهج العلمية، هذا كاتب إسلامي يُفترض أنَّه يؤرِّخ لتاريخ الأمم الإسلاميّة، ويضيف: (وقد أكثر الناس في هذه الحادثة _ حادثة كربلاء _ لا يريدون بذلك إلاَّ أن تشتعل النيران في القلوب فيشتد

(١) عنه: بحار الأنوار ٩٠: ٣٥٢؛ وفي كنز العمال ١٢: ٩١/ ح ٣٤١٢٧: «إنَّ إبراهيم همَّ أن يدعو على أهل العراق، فأوحى الله تعالى إليه: لا تفعل، إنّي جعلت خزائن علمي فيهم، وأسكنت الرحمة قلوبهم...» الحديث.

تباعدها...)، إلى أن يقول: (إنَّ غاية ما في الأمر أنَّ الرجل _ يعني الحسين C _ طلب أمراً لم يُهيّأ له ولم يَعدّ عُدَّته، فحيل بينه وبين ما يشتهي، وقُتِل دونه، وقبل ذلك قُتل أبوه... فإنَّه خالف يزيد وقد بايعه الناس، ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العُسف)!!

بحمد الله تعالى وبجهود علماء الشيعة فقد بقيت مدرسة أهل البيت G ونورهم مشعاً، ولو أتيح لأمثال هؤلاء الكتّاب أن يبيدوا هذه المجالس الحسينية والكتب الشيعيّة لفعلوا؛ لأنَّ هذه القضية _ بحسب زعمهم _ تُثير الفتن، أما قَتل الحسين C وهو سيد شباب أهل الجنّة فإنَّه لا يثير الفِتن!! وهدم الكعبة من قِبَل يزيد هذه ليست فتنة!! هذا هو التفكير الظُلامي، وإلى اليوم نشهد هذه الأفكار الظُلامية ضدّ الحسين C وشيعة الحسين، ولم تكن أهداف الحسين C شيعية ولا أهدافاً سُنّية، بل كانت أهدافاً إسلاميّة، بل وحتّى أوسع من الأهداف الإسلاميّة، فهي كانت أهدافاً إنسانية.

يقول الإمام الحسين C: «إنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي 9، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ وهو خير الحاكمين»[1]، هذه هي أهداف الحسين C.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٣ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة الثالثة:

الإمام علي C

والمرونة في السياسة الإسلاميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أمير المؤمنين C :

«وَاللَّـهِ لَـوْ أُعْطِيـتُ الأَقَـالِيمَ السَّـبْعَةَ بِمَـا تَحْـتَ أَفْلاكِهَـا عَلَـى أنْ أعْصِـيَ اللَّـهَ فِـي نَمْلَـةٍ أَسْـلُبُهَا جُلْـبَ شَـعِيرَةٍ مَـا فَعَلْتُـهُ، وَإِنَّ دُنْيَـاكُمْ عِنْـدِي لأَهْـوَنُ مِـنْ وَرَقَـةٍ فِـي فَـم جَـرَادَةٍ تَقْضَـمُهَا، مَـا لِعَلِـيٍّ وَلِنَعِـيم يَفْنَـى وَلَـذَّةٍ لا تَبْقَـى، نَعُـوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْل وَقُبْح الزَّلَل، وَبهِ نَسْتَعِينُ»[1].

المرونة في السياسة الإسلاميّة:

هناك سؤال: ما هو موقع المرونة السياسية في الإسلام؟

هل أنَّ الإسلام يقبل بشيء اسمه المرونة السياسية؟

حينما نتحدَّث عن مبدئية قصوى، فهل يعني ذلك أنَّ الإنسان يكون متصلّباً إلى درجةٍ بحيث لا يَقبل أيّة مرونة، وقد يؤدّي هذا التصلّب إلى فشل الموقف؟ السياسة الإسلاميّة التي يرسمها الإمام علي C في كل الحقول هل هي سياسة متصلّبة؟ أم فيها مرونة؟

وهذا بحث عن موقع المرونة في السياسة الإسلاميّة.

هذا المقطع الذي قرأته عليكم من كتاب الإمام علي C متى كان؟ ومع من؟ كان مع شخص جاء للإمام علي C بهديةٍ، لكن الإمام

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٢١٨/ رقم ٢٢٤.

C فَهِمَ الأمر على أنَّه ليس هدية، وإنّما هو رشوة يريد أن يستدرج بها الإمام علياً C لمصالح وغايات سياسية، فلو كانت الهدية من صديق فلا مشكلة في قبولها، لكن الهدية حين يَشِمّ الإمام منها رائحة الرشوة، إذن يجب أن يحذر منها؛ لأنَّ من ورائها حكماً بالباطل.

يقول الإمام C : «وأعجبُ من ذلك طارقٌ طَرَقَنا بملفوفَةٍ في وعائِها، وَمعجونَةٍ شنأتها، كأنَّما عُجِنَت بِريق حيَّة.

فقلت: أصِلةٌ، أم زكاةٌ، أم صدقة فذلك محرَّم علينا أهل البيت؟

فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنَّها هدية.

فقلت: هبلتك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني، أمختبطٌ أنتَ، أم ذو جِنَّةٍ، أم تهجُر؟! والله لو أُعطيتُ الأقاليمَ السبعة...»[(١)].

هذه هي ظاهرة المبدئية القصوى.

وسؤالنا اليوم عن السياسة الإسلاميّة، سواءً في البيت، أو في المحل، أو مع جيرانك، وما شاكل ذلك: هل هناك مرونة أم لا؟

ومن ناحية ثانية: هل تقبل مناورة أم لا؟

ما هو موقع المناورة في السياسة الإسلاميّة؟

المرونة أم المناورة؟

يجب أن نميِّز بين ما هو مناورة ومرونة.

لا شكّ أنَّ المناورة أمر مقبول بشرط أن لا يتحوَّل إلى دجل أو خداع، أو إلى سياسة نفعية.

يقول أمير المؤمنين C بالنصّ المعروف: «والله ما معاوية بأدهى

---

(١) المصدر السابق.

منّي، ولكنَّه يغدُر ويفجُر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كلُ غدرةٍ فَجرة، وكل فَجرةٍ كَفرة، ولكلّ غادر لواءٌ يُعرفُ به يوم القيامة، والله ما اُستغفل بالمكيدة، ولا اُستغمز بالشديدة»[1]، أي إنَّني لا تضيع عليَّ المكائد، ولكن لا أستطيع أن أقابلها بالمثل.

هذا هو معنى المبدئية القصوى.

والسؤال حينئذٍ: ماذا يقول الفقه عن المناورة والمرونة؟

أذكر هنا عدّة قضايا بهدف استكشاف النظرية الإسلاميّة:

القضيّة الأولى: وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق، فالمناورة لا يجوز أن تكون على حساب ذلك.

القضيّة الثانية: وجوب الصدق والابتعاد عن الكذب في المناورة.

القضيّة الثالثة: وجوب احترام حقوق الآخرين، فلا تجاوز على حقوق الأبرياء، فالتجاوز ليس مناورة، وإنَّما هذا خداع وعدوان لا يرضى به الإسلام.

القضيّة الرابعة: في حال الحرب يجوز الكذب والخداع العسكري، لأنَّ «الحرب خدعة»[2].

لماذا لم يَقتل ابن ملجم:

هناك سؤال مطروح: لماذا الإمام علي C في سياسته المبدئية

(١) نهج البلاغة ٢: ١٨٠/ رقم ٢٠٠.

(٢) عن إسحاق بن عمّار عن جعفر بن محمّد عن أبيه H: «أنَّ علياً C كان يقول: لئن تخطفني الطير أحبُّ إليَّ من أن أقول على رسول الله 9 ما لم يقل، سمعت رسول الله 9 يقول في يوم الخندق: الحرب خدعة. يقول: تكلّموا بما أردتم». (تهذيب الأحكام ٦: ١٦٣/ باب أنَّ الحرب خدعة/ ح ١).

القصوى لم يقتل (ابن ملجم)، وهو يعلم أنَّ (ابن ملجم) قد نوى له شرّاً وتأبَطَ سيفاً يريد أن يقتله بهذا السيف؟

لماذا لم يعتقله على الأقل؟

فهل المبدئية القصوى لم تسمح للإمام علي C أن يقتل (ابن ملجم)؟

والقصة معروفة أنَّ الإمام علياً C حينما دخل المسجد ليلة شهادته رأى ابن ملجم قد نام على بطنه وتحته سيف، وقد عَلِم الإمام علي C ذلك، وقال له: «لقد هممت بشيء تكاد السماوات يتفطَّرن منه، وتنشقُّ الأرض، وتخرُّ الجبال هدّاً، ولو شئت لأنبأتك بما تحت ثيابك»[(١)].

هناك عدّة تصوّرات في الجواب على هذا السؤال:

التصوّر الأوّل: أنَّ الإمام علياً C لا يعلم الغيب، ولا يعلم أنَّ ابن ملجم يحمل سيفاً يريد أن يقتله به.

ولكن هذا التصوّر غير صحيح؛ لأنَّ الثابت عندنا في التأريخ أنَّ الإمام علياً C كان يعلم الحقيقة، يعلم أنَّ هذه الليلة هي ليلة شهادته، ويعلم أنَّه سيستشهد على يد هذا الرجل كما أخبره بذلك رسول الله 9 .

إذن القول بأنَّ الإمام علي C كان غافلاً وجاهلاً هو قول غير صحيح.

التصوّر الثاني: أنَّ الإمام علياً C ما كان يحتاط لنفسه أمنياً، ولا يحذر من مكر العدو، والإمام علي C كان شجاعاً للغاية، لكنَّه بدون حذر، ولو كان يحذر لما خرج إلى المسجد تلك الليلة، بل كان عليه أن يعتقل (ابن ملجم)، أو يبعث قبله حرساً يفتّشون المسجد ويفتّشون

(١) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨١.

النـائمين فـي المسـجد، ولكـن الإمـام عليـاً C كـان لا يُبـالي بالاحتياطـات الأمنية.

وهذا التصوّر أيضاً غير صحيح؛ لأنَّ الاحتياطات الأمنية هي واجبة شرعاً، كما أنَّها جزء من حنكة القائد العسكري والسياسي. ومثل الإمام علي C كيف لا يحتاط لمثل تلك الظروف الخطرة، والتي كان يتحدَّث عنها الإمامُ C عندما سهر في تلك الليلة وأكثر الخروج والنظر إلى السماء بقوله: «والله ما كَذِبت ولا كُذّبت، وإنَّها الليلة التي وعدت فيها»[١]، فهو يعرف أنَّ الظروف خطرة، فكيف نفترض أنَّ الإمام علياً C في هذه الظروف لا يستخدم الحكمة ولا يحتاط في قضيّة عسكرية مهمّة، والحقيقة أنَّ الإمام كان معروفاً بشدّة الحذر في المعارك، ففي معركة أُحُد حينما طلبت هند من وحشي أن يقتل أحد الثلاثة: (محمّد 9 ، أو علي، أو حمزة) فقال وحشي:

(أمّـا محمّـد فـلا حيلـة لـي إليـه؛ لأنَّ أصـحابه يطيفـون بـه، وأمّـا علـي فإنَّـه إذا قاتـل كـان أحـذر مـن الـذئب، وأمّـا حمـزة فـإنّي أطمـع فيـه؛ لأنَّـه إذا غضـب لـم يبصـر بـين يديـه)[٢]؛ حمـزة كـان بطـلاً عملاقـاً، لكـن احتياطـه العسكري ضعيف، لا ينتبه لجوانب الغدر، وبالفعل قَتَلَ وحشي حمزة.

إذن هذا التصوّر غير صحيح أيضاً.

ويبقـى السـؤال: مـا هـو السـبب فـي أنَّ الإمـام عليـاً C أقـدم تلـك الليلة على الحضور إلى المسجد ولم يقتل ابن ملجم؟

هنــاك جــواب عــريض يــذكره علماؤنــا، لــيس فــي هــذا الموقــع

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٤.

(٢) الإرشاد ١: ٨٣.

فحسب، بل في أكثر من موقع، مثل قصة الإمام الرضا C حينما أكَلَ العنب المسموم الذي قدَّمه المأمون، وهو يعلم بأنَّ العنب مسموم، وهنا يمكن الإجابة على ذلك بأنَّه: (الخضوع للتقدير الإلهي).

الحسين C كان يعلم أنَّه سيقتل في كربلاء، لكن هذا التقدير الإلهي مُخبَر به عن رسول الله 9 ، فلا بدَّ أن يخضع للتقدير الإلهي.

والإمام علي C كان يعلم أنَّ هذا تقدير إلهي أن يُضرَب فجر يوم التاسع عشر من شهر رمضان، وأن يكون مقتله على يد ابن ملجم، وهذا هو ما نسمّيه (الخضوع للتقدير الإلهي)، ولأنَّ الإمام يعلم بالتقدير الإلهي فيجب عليه أن يخضع له، وهذا هو تكليفه، الله تبارك وتعالى أعطى رسول الله 9 القدرة على أن يستفيد من الملائكة في النصر، لكن رسول الله 9 كان يعتمد على القدرات البشرية.

الإمام الحسين C كذلك، حيث تقول الرواية إنَّه هبطت ملائكة من السماء لنصرته، فأبى C أن يستفيد منهم لنصرته[1]، فالقضيّة يجب أن تخضع للتقديرات الإلهية، ووفقاً للسياقات الطبيعية، وبعيداً عن استخدام الغيب. ولهذا كان الإمام علي C يسلّم تسليماً، والأئمّة G كلّهم كانوا يسلّمون تسليماً، فهذا هو الخضوع للتقدير الإلهي.

(١) في الرواية عن الإمام الصادق C قال: «لمّا سار أبو عبد الله الحسين بن علي H من مكّة ليدخل المدينة لقيه أفواج من الملائكة المسوّمين والمردفين في أيديهم الحراب على نجب من نجب الجنّة، فسلَّموا عليه وقالوا: يا حجّة الله على خلقه بعد جدّه وأبيه وأخيه، إنَّ الله ﷿ أمدَّ جدّك رسول الله 9 بنا في مواطن كثيرة، وإنَّ الله أمدَّك بنا. فقال لهم: الموعد حفرتي وبقعتي التي أستشهد فيها وهي كربلاء، فإذا وردتها فأتوني، فقالوا: يا حجّة الله، إنَّ الله أمرنا أن نسمع لك ونطيع، فهل تخشى من عدو يلقاك فنكون معك، فقال: لا سبيل لهم عليَّ ولا يلقوني بكريهة أواصل إلى بقعتي». (اللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس: ٤١).

موقفه من طلحة والزبير:

سؤالٌ آخر حول المبدئية القصوى التي استخدمها الإمام علي C حول موقفه من طلحة والزبير؟

لقد جاءه طلحة والزبير يريدان منه الإذن للذهاب للعمرة، فقال لهما الإمام C: «ما العمرة تريدان، ولكن تريدان الغدرة»[١].

الإمام يدري بالواقع، لكن من حقّنا أن نسأل: لماذا لَم يعتقلهما؟ لماذا أذن لهما؟ لقد ذهبا إلى مكّة وفيها التحقا بعائشة فعبّئوا القوات وجاءوا لحرب الإمام، وسالت دماء ودماء إلى أن انتصر عليهم الإمام، وهنا يسأل سائل: أيّ انفتاح وأيّة سياسة يتعامل بها الإمام علي C مع خصومه بهذا الشكل من الحرية؟ لماذا لم يلق عليهم القبض؟ فهل المبدئية القصوى أن يتعامل معهم بكلّ هذه الحرية؟

هناك عدّة أجوبة افتراضية:

الجواب الأوّل: جهل الإمام: أنَّ الإمام C ما كان يعلم بمكيدة طلحة والزبير.

وهذا الجواب خطأ؛ لأنَّ النصوص الثابتة تاريخياً أنَّ الإمام كان يعلم، بل كان رسول الله 9 أخبره بذلك[٢]، وبقطع النظر عن ذلك فإنَّ

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٣٢.

(٢) روي أنَّ أمير المؤمنين C قال في أثناء خطبة خطبها بعد فتح البصرة بأيام حاكياً عن رسول الله 9 قوله: «يا علي، إنَّك باقٍ بعدي، ومبتلى بأمّتي، ومخاصم بين يدي الله، فأعدد للخصومة جواباً، فقلت: بأبي وأُمّي أنت، بيِّن لي ما هذه الفتنة التي ابتلى بها؟ وعلى ما أجاهد بعدك؟ فقال لي: إنَّك ستقاتل بعدي الناكثة، والقاسطة، والمارقة، وحلاهم وسمّاهم رجلاً رجلاً» (الاحتجاج ١: ٢٩٠).

القضـيّة كانـت مكشـوفة للمراقـب السياسـي، ومـن طيّـات كلامهـم، ومـن خطّهـم الواضـح أنَّهـم ذاهبـون إلـى مـؤامرة، فـلا نسـتطيع أن نقـول إنَّ الإمـام لم يكن يعلم.

الجـواب الثـاني: **الحريـة السياسـية**: أنَّ الحريـة السياسية فـي الإسـلام لا تقبل اعتقال هؤلاء ولا منعهم من السفر.

وهـذا الجـواب أيضـاً غيـر صـحيح؛ لأنَّ الحريـة السياسـية فـي الإسـلام لا تقبـل الخـروج علـى القـانون، ولا تهديـد مصـالح الأمّـة. ونظـام الحكـم فـي الإسـلام يسـمح لـك، بـل يفـرض عليـك فـي مواضـع التهمـة أن تتّخـذ إجـراءات احترازيـة. لا يوجـد حريـات مطلقـة فـي الإسـلام، العـالم اليـوم ينـادي بالحريـات المطلقـة، لكـن مـع ذلـك هنـاك احتياطـات أمنيـة واحتياطـات عسـكرية، وعلـى الأقـل كـان علـى الإمـام علـي C أن يقـوم باحتياط أمني، ويقول لهم أنتم ممنوعون من السفر.

الجـواب الثالـث: **الخيـارات الواقعيـة**: أنَّ المسـألة ليسـت هـي مسـألة مـدى الحريـة فـي الإسـلام، لكـن المسـألة هنـا هـي مسـألة (الخيـارات الواقعيـة). أنَّ الإمـام عليـاً C يحلّـل المواقـف سياسـياً وخارجيـاً، أنَّـه لـو منعهم مـن السـفر مـاذا كـان سـيحدث، فالحـدود مفتوحـة، ورحـيلهم وهـربهم بسـيط، فهنـاك واقعيّـات، الإمـام علـي C خيَّـر نفسـه بـأن يمـنعهم لكـن بـدون جـدوى، يعـتقلهم ويكـون هـو سـبب فـي إثـارة مشـكلة، وسـتكون دعايـة إعلاميـة بأنَّـه C اعتقـل صـحابة رسـول الله 9 . فـلا يمكـن أن يعـتقلهم، ولا يمكـن أن يمـنعهم، والقضـيّة الطبيعيـة أن يتـركهم لشـأنهم، وهذه نسمّيها الخيارات الواقعية.

إذن هناك مبدئية قصوى، وهناك مناورة ممكنة في الإسلام، شريطة أن لا تبلغ حدّ الخداع والكذب والتجاوز على الحقوق كما يمارسه الساسة البعيدون عن الإسلام.

وسأحدّثكم عن الممارسات الأموية التي استُخدِمت في ملاحقة أعدائهم بما لا يقبل به الإسلام ولا تقبل به الإنسانية.

لماذا فشلت التجربة الشيعيّة؟

وسؤال ثالث طُرح بالأمس أنَّه: لماذا فشلت التجربة العلوية؟

لقد حكم الإمام علي C خمس سنوات مليئة بالحروب، ثمّ انتهت بمقتله وتسلَّط معاوية على الشام والبصرة ومصر، الأمر الذي يسمح بالقول إنَّ التجربة العلوية فشلت.

ثمّ يتطوَّر هذا السؤال: لماذا فشلت التجربة الشيعية على طول التاريخ؟ فهل المقدَّر للشيعة وأهل البيت G أن لا ينجحوا؟

الجواب فيه عدّة تصوّرات افتراضية:

الجواب الأوّل: إشكالية في الفكر الشيعي: أنَّ هناك إشكالية في الفكر الشيعي، وهي أنَّه فكر مثالي لا يمكن أن ينجح على الأرض، الفكر الذي يبحث عن الحاكم العامل بكتاب الله، القائم بالقسط، وهذا غير موجود على الأرض، فهذه نظرية مثالية نتيجتها الفشل، وهكذا النظرية الشيعية في الممارسة السياسية التي تفرض الابتعاد عن الكذب، والخداع، والمنسوبيات، والإغراء بالمال، والدعاية الكاذبة، وما شاكل ذلك، مما تفرضه السياسة الواقعية، هذا شيء مثالي لا يمكن السير فيه.

نحن نعتقد أنَّ هذا الجواب غير صحيح، ولو كان هذا الكلام

صحيحاً لما انتصر رسول الله 9 وأسَّس الدولة الإسلاميّة، ولما انتصر الإمام علي C وحكم خمس سنوات، نحن نعتقد أنَّ الفكر الشيعي هو فكر واقعي وليس مثالياً.

الجواب الثاني: إشكالية في الخطاب الشيعي: أنَّ هناك إشكالاً في الخطاب الشيعي، بأنَّه خطاب يتّصف بقوة الطرد، ولا يتمتّع بقوة الجذب، والناس يريدون خطيباً، أو شاعراً، أو قائداً يجذب الناس، فإذا فشل الخطاب الإعلامي فإنَّ هذا القائد سيفشل حتماً.

مثلاً: عندما جاء ابن زياد إلى الكوفة، ماذا قال للناس؟

جمع ابن زياد الناس في جامع الكوفة، ثمّ خرج فصعد المنبر، ثمّ قال: أيّها الناس، إنَّكم بلوتم آل أبي سفيان فوجدتموهم كما تحبّون، وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه حسن السيرة، محمود الطريقة، محسناً إلى الرعية، ... وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أوفرها عليكم وأخرجكم إلى حرب عدوّه الحسين، فاسمعوا له وأطيعوا.

ثمّ نزل عن المنبر ووفَّر الناس العطاء، وأمرهم أن يخرجوا إلى حرب الحسين C ، ويكونوا عوناً لابن سعد على حربه(١).

فاطمئنَّ الناس إلى ذلك وفرحوا به، فهو بذلك قد اشترى عواطفهم وضمائرهم.

لكن الحسين C ماذا قال؟

قال: «من لحق بنا استشهد، ومن تخلَّف لم يدرك الفتح»(٢).

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٠.

وقال: «ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمَلُ به، وإلى الباطل لا يُتناهى عَنه، لِيرغَبَ المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرى الموتَ إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ بَرَماً»(١).

الإمام الحسين في أوّل خطابه يكشف الحقيقة للناس، أنَّه سوف لن ينتصر عسكرياً، وإنَّما هو ذاهب إلى الشهادة، ومن الطبيعي أنَّ هذا النمط من الخطاب لا يقبله إلاَّ القليلون. وهذه هي إشكالية الخطاب الشيعي بحسب هذا الجواب الثاني.

ولكن هذا الجواب أيضاً غير صحيح، فليست المشكلة عندنا وعلى طول التاريخ هي أزمة الخطاب الإعلامي، وأنَّه خطاب غير قادر على الجذب، الأمر بالعكس، فالإمام الحسين C _ إذا تحدَّثنا بشكل واقعي _ استطاع أن يعبّئ الآلاف المؤلَّفة ضدّ الحكم الأموي، ولا يزال الخطاب الإعلامي للحسين C وإلى اليوم خطاباً مؤثّراً وقوياً وفاعلاً، رغم أنَّ الحسين خَسِرَ المعركة العسكرية؛ لأنَّ الحسين C لم يكن يخطّط لتحقيق كسب عسكري، وأمير المؤمنين C كان أكثر إنسان براعةً في الخطاب الإعلامي، حيث لا يوجد وباتفاق كلّ العرب من هو أقدر على الخطاب الإعلامي من أمير المؤمنين C ، وهذا (نهج البلاغة) يقرؤه السياسيون والأدباء والشعراء، فيشهدون أنَّه أروع خطاب إعلامي، المشكلة إذن ليس أنَّ الخطاب الشيعي يتمتّع بقدرة طرد لا بقدرة جذب، وإنَّما هناك جواب ثالث هو الذي نعتقد به.

الجواب الثالث: إشكالية الطبيعة البشرية: أنَّ الإشكال في الطبيعة البشرية التي يتحدَّث عنها القرآن الكريم قائلاً: [وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ

---

(١) مقتل الحسين لأبي مخنف: ٨٦؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٠٥.

الْقَوْلُ مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس أَجْمَعِينَ][1]، الطبيعة البشرية أقرب إلى اتّباع الهوى من اتّباع العلم، فالدين مِثل العلم، والناس في المعظم لا يريدون العلم. أكثر الناس ليس من همومهم الدراسة والعلم ومعرفة الحقيقة، العلماء قليلون، سواءً في مجال الدين أو في كل المجالات، وهكذا الفن، فلا نتصوّر أنَّ الناس كلّهم أصحاب فن، فأصحاب الفن قلائل، وأكثر الناس متفرّجون. في كرة القدم الفريق أحد عشر شخصاً، لكن المتفرّجين عشرات الآلاف، فهؤلاء العشرة آلاف ليس لديهم قدرة فنّيّة، وليس عندهم قدرة رياضية، أهل الفن قليل، لكن المتفرّج على الفن كثير، أهل العلم قليل، والمتفرّجون على العلم كثير، كذلك الدين هو ضرورة بشرية، لكن كثيراً من الناس لا يخضعون لتعاليم الدين.

هذا التحليل في تفسير قِلّة أصحاب الحقّ وكثرة أهل الباطل هو الذي ذكره الإمام الحسين C حينما خطبَ أصحابه ليلة عاشوراء قائلاً:

«الناس عبيد الدنيا، والدين لَعِقٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قلَّ الديّانون»[2]، يعني أنَّ المشكلة ليست هي مشكلتي أنا الحسين، وإنَّما المشكلة هي مشكلة الطبيعة البشرية، [وَلَوْ شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس أَجْمَعِينَ][3]، هذه هي مشكلة الطبيعة البشرية، [إِنَّ الإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً][4]، ومع ذلك فهل نجعل مشروع الدين فاشلاً؟ هذا بحث نؤجّله، وننتقل إلى الإمام الحسين C .

(١) السجدة: ١٣.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٣.

(٣) السجدة: ١٣.

(٤) المعارج: ١٩ و٢٠.

الشيعة ثلاثة أصناف:

١ _ أصحاب الحسين C .

٢ _ أتباع الحسين C .

٣ _ أحباب الحسين C .

أصحاب الحسين C هم قِلَّة، وأتباعُ الحسين C أكثر منهم بقليل، ولكن أحباب الحسين كثيرون، هذه مراتب ومستويات. وكلّهم شيعة، لكن على مستويات، فالذين هم بمستوى أصحاب الحسين C هم أولئك المخلصون الأتقياء الورعون، وأمّا أتباع الحسين فهم بنفس الطريق، لكن لا يصِلون إلى مستوى الأصحاب، وأمّا المحبّون فهم الذين يحبّون الحسين C دون أن يلتزموا بتفاصيل المواقف الشرعية التي يريدها الحسين C ، وهؤلاء هم أكثر الناس.

الحديث عن الإمام الصادق C يقول: «إنَّ اللهَ يحبُّ من عباده المُفتَن التوّاب»[1]، فهو من أهل الدين، لكن لديه معصية، والدين في الحقيقة ينفتح على هؤلاء ويقبلهم ولا يرفضهم، الدين يهمّه أن يحقّق ما نُسمّيه بـ (الأهداف الوسطية)، الدين اليوم لا يحكم العباد، لكن الدين يريد أن يرقى بالمجتمعات إلى مستوى أخلاقي مناسب، ولا نقول هو المستوى المثالي، هذا هو طموح الدين، وهذا هو عمل الأنبياء، ولولا هذا العمل لما بقيَ شيء من القِيَم.

العالم اليوم ينادي بحقوق الإنسان، وهذه قيمة مهمّة، وإذا عُدنا إلى العراق فقد عمل الخط الديني حتّى فرضَ على صدام أن يُعلن

(١) الكافي ٢: ٤٣٢/ باب التوبة/ ح ٤.

الحَملـة الإيمانيـة، ونحـن نعـرف أنَّ صـدام أبعـد مـا يكـون عـن الـدين، إذن فقـد حقَّـق الـدين وحقَّـق الخطـاب الـديني ـ والشـيعي بالخصـوص ـ هـدفاً كبيـراً، لقـد بقـيَ الـدين فـي العـراق مسـتحكماً، وإنَّ مـن يـدخل العـراق اليـوم يقـول: إنَّ العـراق شـعبٌ ملتـزم، وبقـيَ المسـلمون إلـى حـدٍّ كبيـر لـديهم التـزام ديني، رغم أنَّ هناك أخطاء وانحرافات، لكن الالتزام الديني موجود.

الـدنمارك حينمـا رَسَـمَت كاريكاتوريـات سـاخرة لرسـول الله 9 فـإنَّ العالم الإسلامي كلّه تحرَّك غيرةً ودفاعاً عن رسول الله 9 ، وهؤلاء المسلمون لـيس بالضـرورة أنَّهـم يصلّون صـلاة الليـل، ولعـلَّ لـديهم الكثيـر مـن المشـاكل الدينيّة، لكن بَقيَ جذر الارتباط بالقِيَم وبالنبي 9 محفوظاً، وهذا كلّه فيما نتصوّر جواباً على سؤال: لماذا فشلت التجربة العلوية؟

إنَّ التجربـة العلويـة والحسـينية والشـيعية لـم تفشـل، بـل هـي التـي حفظت هذا الجذر الديني لدى الناس.

إنَّ تجربـة الحسـين C لـم تفشـل، أنظـروا إلـى معاويـة مـاذا صـنع؟ ثـمّ قـدِّروا الموقـف، لـولا حركـة الإمـام الحسـين C هـل كـان يبقـى الـدين والإسلام والتشيّع إلى اليوم؟

خطط معاوية:

معاوية استخدم بعد التحكيم:

أوّلاً: الحصار الإعلامي ضدّ أهل البيت G .

ثانياً: القتل الجمعي للشيعة.

ثالثاً: ملاحقة قادة الشيعة.

رابعاً: اعتقال نساء الشيعة.

خامساً: هدم دور الشيعة.

سادساً: سياسة التجويع بإسقاط العطاء عن الشيعة.

سابعاً: التهجير القسري لشيعة علي C .

هذه سبع خطوات استخدمها معاوية.

أوّلاً: **الحصار الإعلامي**: يذكر ابن أبي الحديد المعتزلي في كتابه (شرح نهج البلاغة)[١]: (أنَّ معاوية كتب نسخة واحدة إلى عمّاله: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي C ، فاستعمل عليهم زياد بن سميّة، وضمَّ إليه البصرة، فكان يتتبَّع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنَّه كان منهم أيام علي C ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسَمَل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وشرَّدهم عن العراق، فلم يبقَ بها معروف منهم.

وكتب معاوية أيضاً إلى عمّاله في جميع الآفاق ألاَّ يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم أن أُنظروا من قِبَلِكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقرِّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكلّ ما يروى كلّ رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لِما كان يبعثه إليهم معاوية من الصِلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب

---

(١) ج ١١: ص ٤٤ - ٤٦.

منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كتب اسمه وقرّبه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً.

ثمّ كتب إلى عمّاله: أنَّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنَّ هذا أحبُّ إليَّ وأقرُّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته، وأشدُّ عليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدَّ الناس في رواية ما يجرى هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلّمي الكتاتيب فعلَّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتّى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولاسيّما بالكوفة، حتّى إنَّ الرجل من شيعة علي C ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدّثه حتّى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القرّاء المراءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به

الأموال والضياع والمنازل، حتّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان. فقبلوها ورووها وهم يظنون أنَّها حقّ. ولو علموا أنَّها باطلة لما رووها ولا تديّنوا بها).

ثانياً: القتل الجمعي: هذا بِسر بن أرطاة قائد واحد في جيش معاوية قتل ثلاثين ألفاً من شيعة العراق، وحرَّق قوماً بالنار[1].

والآخر هو سَمَرَة بن جندب قتل ثمانية آلاف من أهل البصرة كلّهم من شيعة علي[2].

وهذه روايات لم يروها كتّابنا وتاريخنا فقط، وإنَّما يرويها كتّابهم ومؤرِّخوهم.

ثالثاً: ملاحقة القادة واعتقالهم: مثل حجر بن عدي، ورشيد الهجري، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وغيرهم.

رابعاً: ملاحقة واعتقال النساء: معاوية أوّل من بدأ بهذه السُنّة، كما فعل مثلاً بآمنة بنت الشريد زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي[3]، وغيرها.

---

(١) راجع: الغارات ٢: ٦٣٩؛ شرح نهج البلاغة ٢: ١٧.

(٢) ذكر الطبري في تاريخه (ج ٤/ ص١٧٦): أنَّ محمّد بن سليم قال: سألت أنس بن سيرين: هل كان سمرة قتل أحداً؟ قال: وهل يُحصى من قتل سمرة بن جندب! استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت.

(٣) ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٩: ٤٠، وقال: كانت تحت عمرو بن الحمق آمنة بنت الشريد، فحبسها معاوية في سجن دمشق زماناً، حتّى وجَّه إليها برأس عمرو بن الحمق، فألقي في حجرها، فارتاعت لذلك، ثمّ وضعته في حجرها ووضعت كفّها على جبينه ثمّ لثمت فاه، ثمّ قالت: غيبتموه عنّي طويلاً ثمّ أهديتموه إليَّ قتيلاً، فأهلاً بها من هدية غير قالية ومقلية.

خامساً: هـدم دور الشـيعة: ويـذكر المعتزلـي أيضـاً فـي (شـرح نهـج البلاغـة)[1] يقـول: (ثـمَّ كتـب معاويـة إلـى عمّالـه نسـخة واحـدة: مـن اتهمتمـوه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به، واهدموا داره).

والشـيعة ليسـوا فـي الكوفـة فقـط، بـل فـي العـراق ومصـر، وتصـوّروا بعدئذٍ كيف استطاع الشيعة أن يحافظوا على أنفسهم إلى اليوم.

سادسـاً: سياسـة التجويـع: وكتـب معاويـة نسـخة أخـرى إلـى جميـع عمّالـه: (أنظـروا إلـى مـن قامت عليـه البيّنـة أنَّـه يحـبّ علياً وأهـل بيتـه فـامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه)[2].

سـابعاً: سياسـة التهجيـر: لاحظـوا قبـل (١٤٠٠) عامـاً اسـتخدم معاويـة سياسة التهجير.

الباحـث المستشـرق (كـارل بروكلمـان) فـي كتابـه (تـاريخ الشـعوب الإسـلاميّة) يـذكر هـذا الخبـر، أنَّ زيـاد بـن أبيـه وكـان والـي معاويـة علـى الكوفة هجَّر وأجلى خمسين ألفاً إلى خراسان.

وهـم الشـيعة فـي الكوفـة، وطبعـاً فقـد جـاء مكـانَهم آخـرون، هـذه هـي سياسة التهجير لمجرد حبّهم لعلي C .

أمـام مثـل هـذا الضـغط العجيـب، الحصـار الإعلامـي، التهجيـر، قطـع العطـاء، الإعـلام المضـاد، ملاحقـة القـادة، القتـل الجمعـي، ملاحقـة النسـاء، أمام مثل هكذا وضع كيف استطاع التشيّع أن يبقى إلى اليوم في العراق؟

كـان ذلـك معجـزة، وهـذا شـيء يـدلّل علـى نجـاح الخطـاب الشـيعي والفكـر الشـيعي، ونجـاح أئمّتنـا C ونجـاح سياسـتهم، ولـولا تلـك

(١) راجع: ج ١١: ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق.

السياسات ما كان يمكن أن يبقى التشيّع في العراق، التشيّع لم يبقَ في بلاد الشام، ولا بلاد الأندلس، ولا مصر، بل بقي في العراق.

واليوم هناك امتداد حقيقي لمذهب أهل البيت G في العالم العربي والإسلامي. وهذا الامتداد في الحقيقة لم يكن فارسياً ولا إيرانيّاً، بل هو امتداد المذهب وأئمّة المذهب، ونحن ندري بأنَّ إيران بلغتها الفارسية غير قادرة على تحقيق هذا الانتشار، فهم مفروض عليهم حصار لغوي لا يمكّنهم الامتداد إلى تونس، والمغرب، والجزائر، وليبيا، وغيرها.

العالم العربي اليوم يقرأ كتب التيجاني. وكتب عبد الحسين شرف الدين. وكتب السيد محمّد باقر الصدر، لكن أعداء التشيّع لا يستطيعون أن يقولوا: إنَّ هذا هو مدّ أهل البيت G ، بل يقولون: إنَّ هذا مدٌّ فارسي، أو صَفوي، وما شاكل ذلك.

في الحقيقة هذه محاولة لخداع الناس، لكنَّهم يشعرون اليوم أنَّ هناك امتداد حقيقي لمذهب أهل البيت G في العالم العربي والإسلامي، هذا هو خطاب أهل البيت G ، فبرغم كلّ الإعلام المضاد فإنَّ هذا الفكر يتقدَّم في العالم الإسلامي، بحيث إنَّ مثل الشيخ القرضاوي رئيس الاتحاد العالمي لعلماء الإسلام وفي مؤتمر دولي يقول: إنَّ المدَّ الفارسي ـ وهو يقصد المدِّ الشيعي ـ يغزو الدول العربية!!، الحقيقة أنَّ هذه ليست قدرة أموال، هذه قدرة خطاب، فنحن الشيعة ليس لدينا سياسة معاوية ولا أموال معاوية، هذا الفكر وهذا الخطاب هو الذي أبقى التشيّع حيّاً إلى اليوم، وأبقى هذه التجربة ناضجة وأصبحت تفرض نفسها على العالم اليوم.

لماذا ثار الحسين C ؟

هنا سؤال يقول: إنَّ الإمام علياً C قد أحجم عن رفع السلاح عندما غُصبت الخلافة منه، فما هو سبب قدوم الحسين C على رفع السلاح ضدّ الحكم الأموي؟

هذا بحث يحتاج إلى توسع، فالحقيقة أنَّ الإمام الحسين C كانت ثورته بالأصل سلميّة وليست ثورة مسلّحة، فالإمام الحسين C لم يرفع السلاح إلاَّ حين عرَّضوه للقتل. فالإمام الحسين C في آخر لحظة جاء إليه أبو الفضل العبّاس C وقال له: يا أخي، هل من رخصة ـ بالقتال ـ، فقد ضاق صدري وسئمت الحياة، وأريد أن أطلب ثأري من هؤلاء المنافقين.

فبكى الحسين C بكاءً شديداً، ثمّ قال: «يا أخي، أنت صاحب لوائي، وإذا مضيت تفرَّق عسكري، فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء»[1].

لاحظوا إصرار الإمام الحسين C على أن لا يشهر السلاح، ولا يبدأ بقتال، وإذا كان ولا بدَّ فليكن الهدف هو طلب الماء، وحينما يتعرَّض إلى قتال سيكون الدور هو دور دفاعي، الأمر الذي يؤكّد أنَّ حركة الحسين C كانت بالأصل حركة تغيير سلمي يعتمد على تحشيد القوى الجماهيرية ورفضها للحكم الجائر.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

(٤ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة الرابعة:

أدوات الثورة الحسينيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الحسين C عند نزوله أرض كربلاء في الثاني من محرم الحرام:

«الناس عبيدُ الدنيا، والدينُ لَعِقٌ على ألسِنَتِهم، يَحوطُونَه ما درَّت بِهِ مَعايشُهُم، فإذا مُحِّصُوا بالبلاء قَلَّ الديّانون، ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عُنه، لِيَرَغَبَ المؤمنُ فِي لِقاء اللهِ، فإنّي لا أرى الموتَ إلاَّ سعادة، والحياةَ مع الظالمين إلاَّ بَرَماً»[1].

الحديث عن التقابل بين اتجاهين: اتجاه اصطلحنا عليه بـ (المبدئية القصوى)، واتجاه اصطلحنا عليه بـ (الانتفاعية القصوى).

كان أهل البيت G يمثّلون (المبدئية القُصوى)، والاتجاه المقابل الذي هو الاتجاه الأموي كان يُمثّل (الانتفاعيّة القُصوى)، وهذان الاتجاهان على طول التاريخ نجد صوراً لهما.

حديثنا الليلة ـ وفي سياق الدراسة المقارنة بين حركة الإمام الحسين C وحركة الإمام علي C الذي كان رمزاً للمبدئية القصوى ـ عن الآليّات والأدوات، أو ما يصطلح عليه اليوم (الأجندَة) التي استخدمها الاتجاه الأوّل، والآليات والأدوات التي استخدمها الاتجاه الثاني.

---

(١) مقتل الحسين لأبي مخنف: ٨٦؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٠٥.

ما هي أدوات الإمام الحسين C في منهجية المبدئية القصوى؟ وأيضاً الاتجاه الآخر الأموي ما هي اتجاهاته في منهجية الانتفاعية القصوى؟

أدوات الخطّ الأموي:

الخطّ الأموي استخدم ثلاث أدوات:

الأداة الأولى: عبارة عن (نظرية الموت)، البطش، والقمع بلا حدود.

الاتجاه الأموي استخدم نظرية القمع بلا حدود، حتّى وصل مستوى القمع إلى درجة أن نادى منادي ابن زياد في الكوفة: ألا برئت الذمة ممن وُجِد في الكوفة لم يخرج لحرب الحسين. فرُئي رجل غريب، فأُحضر عند ابن زياد، فسأله، فقال: إنّي رجل من أهل الشام جئت لدين لي في ذمة رجل من أهل العراق. فقال ابن زياد: اقتلوه، ففي قتله تأديب لمن لم يخرج بعد!، فقتل[١]. فأصبح الناس يتحدّثون أنَّ هذا الرجل الغريب قد قُتل بتهمة عدم خروجه لحرب الحسين C .

كانت هذه سياسة ابن زياد، سياسة القمع بلا حدود.

الأداة الثانية: شراء الضمائر، يحدّثنا عن ذلك الوفد الذي التقاه الإمام الحسين C حين سألهم عن وضع الناس، فقالوا:

(أمّا أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، ومُلِئت غرائرهم، يُستمال ودّهم، ويُستخلص نصيحتهم، فهم ألبٌ واحدٌ عليك)[٢].

(١) إبصار العين في أنصار الحسين C : ٣٠.

(٢) مقتل الحسين لأبي مخنف: ٨٨؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٠٦.

الأداة الثالثة: الحرب النفسية، (سياسة التخويف والترويع)، فقد خطب ابن زياد أهل الكوفة وقد بايعوا مسلماً بقوله: (أيّها الناس، الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشر، ولا تعرِّضوا أنفسكم للقتل، فإنَّ هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهداً: لئن تممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرّق مقاتلتكم في مغازي الشام، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتّى لا تبقى له بقية من أهل المعصية إلاَّ أذاقها وبال ما جنت أيديها)[١]، فهو يهدِّد الناس بجيش الشام، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والغائب بالشاهد. وسرت الأحاديث من قِبَل أجهزة السلطة ليقول الناس: (ما لنا والدخول بين السلاطين)، وها هو جيش الشام على الأبواب. هذه حرب نفسية أدَّت إلى هزيمة العراقيين.

أدوات الحركة الحسينيّة:

لكن ما هي أدوات الإمام الحسين C ؟ وما هي آليات وأجندة الخطّ الحسيني؟، الإمام الحسين C كقائد لا بدَّ أن يعبيّ الناس، وهو في هذا السبيل قد استخدم ثلاث أدوات:

الأداة الأولى: كشف الحقيقة:

يومئذٍ لا توجد فضائيات ولا راديو أو جريدة، فالإمام الحسين C حاول أن يعبيّ الناس ويستخدم كل الفرص التي كانت بالإمكان.

من جملة الفرص حجّ بيت الله الحرام، فالتاريخ يحدِّثنا أنَّ الإمام الحسين C عقد أضخم مؤتمر في مكّة المكرّمة اشترك فيه أكثر من

(١) الإرشاد ٢: ٥٤؛ تاريخ الطبري ٤: ٢٧٧.

ألف من الصحابة وأبناء الصحابة، فقد قال الإمام الحسين C لمن معه أن لا يَدَعُوا صحابياً شارك مع رسول الله موجوداً في مكّة إلاَّ ويدعوه إلى هذا المؤتمر، وذلك في آخر سنة من حياة معاوية، لأنَّ معاوية كانت وصيته إلى يزيد في الأشهر الأخيرة، رغم أنَّه كان قد أعدَّ لها وجنَّد لها قبل ذلك، كان معاوية يعمل على أن يصبح يزيد هو الحاكم بعده، والإمام الحسين C بدأ بخطّ الرفض لهذه المسألة أيام معاوية، فجمع سبعمائة شخص من الصحابة وقام C خطيباً، كان ذلك قبل إعلان الثورة، وقبل هلاك معاوية، الإمام الحسين C استفاد من موسم الحجّ وقام فيهم خطيباً وقال: «أمّا بَعد، فإنَّ هذا الطاغية _ وهو يشير إلى معاوية _ قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم ورأيتم وشهدتم وبلغكم، وأنّي أريد أن أسألكم عن أشياء، فإن صَدَقْتُ فصدّقوني، وإن كَذبت فكذّبوني، اسمعوا مقالتي، واكتموا قولي، ثمّ ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم من أمنتموه ووثقتم به، فادعوهم إلى ما تعلمون من حقّنا، فإنّي أخاف أن يندرس هذا الحقّ ويذهب، والله متم نوره ولو كره الكافرون»، ثمّ بدأ C بالحديث، فما تَرَكَ آيةً نزلت في أهل البيت G على رسول الله 9 ، ولا حديثاً قاله الرسول في أبيه وأُمّه وأهل بيته إلاَّ رواه، وكل ذلك يقول الصحابة: (اللهم نعم، قد سمعناه وشهدناه)، ويقول التابعون: (اللهم قد حدَّثنا من نصدّقه ونأتمنه)، حتّى لم يترك شيئاً إلاَّ قاله، ثمّ قال: «أنشدكم بالله إلاَّ رجعتم وحدَّثتم به من تثقون به»، ثمّ نزل وتفرَّق الناس على ذلك(١).

---

(١) الاحتجاج ٢: ١٩.

هذا الموقف هو ما نُسمّيه بكشف الحقيقة من أجل أن لا تضيع ولا تُطمس؛ لأنَّ الحرب يومئذٍ هي حرب إعلامية، كانت هذه هي الأدوات الإعلامية التي استخدمها الإمام الحسين C في واحد من نماذجها.

الأداة الثانية: التوعية السياسية:

لقد جمع ابن زياد الأنصار بطريق الإرهاب والقمع اللامحدود، وبطريقة شراء الضمائر، وهذا هو الخطّ الأموي، ولكن الإمام الحسين C قام باستقطاب الأنصار من خلال التوعية السياسية، وذلك من خلال الرسائل التي بَعثها إلى الكوفة والبصرة وغيرهما من الأمصار، الإمام الحسين C أصبح يبعث رسائل إلى الشخصيات في كلّ العراق، فكتب C إلى جماعة من أشراف البصرة وإلى رؤوس الأخماس فيها كتاباً مع مولىً له اسمه سليمان ويكنى أبا رزين يدعوهم فيه إلى نصرته ولزوم طاعته، فكتب إلى مالك بن مسمع البكري، وإلى الأحنف بن قيس، وإلى المنذر بن الجارود، وإلى مسعود بن عمرو، وإلى قيس بن الهيثم، وإلى عمرو بن عبيد الله بن معمر . فجاءت منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها:

«أمّا بعد: فإنَّ الله اصطفى محمّداً 9 على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثمّ قبضه الله إليه، وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به 9 ، وكنّا أهله وأوليائه وأوصياءه وورثته وأحقّ الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنّا أحقّ بذلك الحقّ المستحقّ علينا ممن تولاه، ... وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيه 9 ، فإنَّ السُنّة قد أميتت، وإنَّ البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله».

وقد استجاب له بعض رؤساء العشائر، ومن هؤلاء الذين استجابوا له يزيد بن مسعود النهشلي. أقرأ لكم ماذا فعل هذا الرجل أثر التعبئة التي قام بها الإمام الحسين C ، لقد جمع عشيرته والعشائر الأخرى وهيّأهم، واجتمع عنده بنو تميم وبنو حنظلة وبنو سعد. فقال لهم: (هذا الحسين بن علي، وابن رسول الله، والله لا يقصّر أحدكم عن نصرته إلاَّ أورثه الله الذل في ولده، والقلّة في عشيرته)، ثمّ كتب إلى الحسين C قائلاً:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد وصل إليَّ كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه ودعوتني له، من الأخذ بحظي من طاعتك والفوز بنصيبي من نصرتك، وإنَّ الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير أو دليل على سبيل نجاة، وأنتم حجّة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرّعتم من زيتونة أحمدية، هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر، فقد ذللت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خمسها، وقد ذلّلت لك رقاب بني سعد، وغسلت درن صدورها بماء سحابة مزن حين استحل برقها فلمع).

لكن المؤرِّخين يقولون إنَّ هذه الرسالة وَصَلَت إلى الإمام الحسين وهو في كربلاء، ولم يدركه، فقال الحسين C بعد أن وصلته الرسالة: «ما لَك؟ آمنك الله من الخوف، وأعزَّك ورواك يوم العطش الأكبر».

تقول الرواية: فلمّا أراد أن يتجهَّز للخروج إلى الحسين بلغه قتله قبل أن يسير، فجزع من انقطاعه عنه(١).

وهذا الخطّ الذي عمل عليه الإمام الحسين C نُسمّيه خطّ التوعية السياسية.

---

(١) راجع: مقتل الحسين لأبي مخنف: ٢٥؛ تاريخ الطبري ٤: ٢٦٦.

الأداة الثالثة: السَبق أو المبادئة:

الإمام الحسين C قام باختيار الأرض، واختيار الشعب، واختيار الأسلوب، ولو بقيت المسألة على يزيد ربّما كان يقتل الحسين C وهو في مكّة، أو أن يبعث له سمّاً وهو في المدينة، لكن الإمام الحسين C هو الذي قام بعملية السَبق في طريقة اختيار المواجهة، فقد أرادها مواجهة مكشوفة، مواجهة معلنة مشهودة، مواجهة فيها حوار مفتوح، مواجهة مظلوم مع ظالم، مواجهة في العراق، وفي كربلاء، وكان هذا هو تخطيط الحسين C .

لماذا اختار هذه الأرض؟ واختار هذا الشعب؟ وهذا الأسلوب؟

لماذا لم يختر حرب العصابات؟

لماذا لم يختر عملية لجوء سياسي إلى اليمن أو إلى مصر؟

كانت كلّها بدائل موجودة، لكن الإمام الحسين C هو الذي اختار هذا الطريق بدل أن يُقتل بالسَّم أو يُقتل غيلةً، هذه هي الأداة الثالثة التي استخدمها الإمام الحسين C .

لماذا أعرضوا عن أهل البيت G ؟

قد يسأل سائل فيقول: قد كانت هذه أدوات الإمام الحسين C ، وتلك أدوات الخطّ الأموي، وكانت كلّ تلك الأحاديث عن رسول الله 9 في منزلة أهل البيت G ، كقوله 9 : «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة، وأبوهما خير منهما»[1]، وقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[2]، وهذه كلّها معروفة لدى الناس، فلماذا أعرض الناس عن أهل البيت G ؟

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٤؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٦٧.

(٢) الاختصاص: ٢٣٨؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٦.

الجواب:

أوّلاً: أنَّ هذه الحقيقة فقدت نصاعتها لدى الكثير من المسلمين، فكان هناك عملية تضييع وتحريف قام بها إعلام معاوية وما قبله ــ وكما هو اليوم أيضاً ــ يعني ضُيِّعت، فالحقائق المعروفة لدينا اليوم لا يعرفها كلّ المسلمين، ربما يعرفها العلماء، المحقّقون، الباحثون، لكن جيل الشباب في مصر، والسودان، وتونس، والجزائر، وأفريقيا، وأوربا لا يملك ما نملكه نحن شيعة أهل البيت من الوضوح في منزلة أهل البيت G ، فالحقيقة تحتاج إلى تمحيص وبحث.

نعم، كلّ المسلمين يعرفون أنَّ رسول الله 9 قال لعلي C : «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى»[1]، يعرفون ذلك، لكن فسَّره علماؤهم بتفسير آخر أفقده مدلوله الحقيقي.

رسول الله 9 حينما قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[2]، جاء علماؤهم وأوّلوا الحديث، وقالوا: إنَّ المولى يأتي بمعنى الناصر أو المُحِبّ، فيكون معنى الحديث من كان يحبّني فليحبّ علياً[3]. وهكذا ضاعت الحقيقة التي أرادها رسول الله 9 .

ثانياً: ضعف الخضوع للحقيقة، وهذا شيء آخر غير المعرفة، فإنَّ كثيراً من الناس يعرفون الحقيقة لكنهم لا يخضعون لها، مثلاً تذهب إلى الهند فترى أطبّاء، فلاسفة، ومهندسين، وأصحاب شهادات عليا، لكنَّهم

(١) أمالي الصدوق: ١٥٦/ ح ١٥٠/ ١؛ صحيح البخاري ٤: ٢٠٨؛ صحيح مسلم ٧: ١٢٠.

(٢) أمالي الصدوق: ٥٠/ ح ٢/ ٢؛ مسند أحمد ١: ٨٤؛ سنن ابن ماجة ١: / ح ١٢١٤٥؛ سنن الترمذي ٥: ٢٩٧/ ح ٣٧٩٧.

(٣) راجع: الصواعق المحرقة: ٢٥؛ تفسير الرازي ١٢: ٢٦.

يعبدون البقر، وتذهب إلى اليونان فتجد ملايين من الكتّاب والمفكّرين لكنَّهم يعبدون (بوذا)!؟ عجيب!! نحن اليوم نتحدَّث عن قريش والجاهلية والأصنام التي كانت على الكعبة، لكن في هذا الزمان يوجد من يعبد البقر ويعبد (بوذا)، وهذا تجده حتّى في أوربا!! هذا هو ضعف الخضوع للحقيقة العلمية. ليس كلّ الناس يخضعون للحقيقة.

القرآن الكريم يقول هناك أناس في قلوبهم مرض، وهم يعرفون الحقيقة، عمر بن سعد كان يعرف الحقيقة، ويزيد كان يعرف الحقيقة، لكن معرفة الحقيقة شيء، والخضوع للحقيقة شيء آخر.

القرآن الكريم يقول: [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ][١]، أنفسهم تعرف الحقيقة، لكنَّهم يرفضون الخضوع لها والاعتراف بها.

ولهذا فإنَّ الإمام الحسين والأئمّة الأطهار G أبلوا بلاءً حَسناً، وبذلوا غاية المجهود في كشف الحقيقة، وفي تربية الناس على الالتزام بها والخضوع إليها.

كيف نفسّر دعاء الحسين C على أهل الكوفة؟

هناك سؤال آخر يأتي بنفس السياق ـ وحديثنا عن أجندة الإمام الحسين C وأدواته وأدوات الخطّ الأموي ـ والسؤال هو:

كيف نفسِّر دعاء الإمام الحسين C على أهل الكوفة؟

لقد قلنا وحسب الروايات الواردة عن أهل البيت G كما روى ذلك المؤرِّخ والمحدِّث الكبير ابن طاووس: أنَّه قد ورد النهي عن ذم

---

(١) النمل: ١٤.

أهل العراق والدعاء عليهم[١]. فإذا كان الأمر كذلك فكيف نرى الإمام الحسين C قد دعا على أهل العراق؟ فإنَّه لمّا برز علي الأكبر إلى القوم قال الإمام الحسين C : «اللهم اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً بنبيك رسول الله 9 ، وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إلى وجهه، اللهم امنع عنهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً، ومزّقهم تمزيقاً، ولا ترض الولاة عنهم أبداً»[٢].

كيف نُفسِّر ذلك؟

لنبتعد عن الحديث النفسي، ولندخل في حديث علمي وموضوعي، فنسأل: هل أنَّ الثناء أو الذم لشعب من الشعوب له امتداد تاريخي، وله إطلاق زماني، وهو ممتد أبد الآبدين؟ أم هو مختصّ بظرفه وزمانه؟

مثلاً القرآن الكريم حينما يتحدَّث: [أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ][٣]، هو يتحدَّث عن أمّة معيّنة، فهل هذا الكلام يمتدُّ إلى أبد الآبدين، أم هو يتحدَّث عن فترة معاصرة؟

---

(١) يقول السيد ابن طاووس: (ومِن صفات الداعي أن لا يدعو على أهل العراق، فإنّي رَوَيت في الجزء الأوّل من كتاب (التجميل) أنَّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم أن لا يدعو على العراق)، عنه: بحار الأنوار ٩٠: ٣٥٢.

وفي كنز العمّال ١٢: ٩١/ ح ٣٤١٢٧: «إنَّ إبراهيم همَّ أن يدعو على أهل العراق، فأوحى الله تعالى إليه: لا تفعل، إنّي جعلت خزائن علمي فيهم، وأسكنت الرحمة قلوبهم...» الحديث.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٤٣.

(٣) الفجر: ٦ - ٨ .

القرآن الكريم يتحدَّث ويقول: [غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ][1]، هو يتحدَّث عن الروم في مقطع تأريخي معيَّن عاصره، ورسول الله 9 كذلك، ففي موقع من المواقع يتحدَّث حديث الذم، وفي موقع آخر يتحدَّث حديث المَدح، يأتي ذلك في سياق الموقف الخارجي الخاص وليس مطلقاً، ولهذا فإنَّ الإمام علياً C مرّةً كان يشحذ الهمم ويبارك للعراقيين بطولاتهم، ومرّة يذمّهم حينما تثاقلوا عن جهاد العدو.

الإمام الحسين C كذلك، هل كان يتحدَّث حديثاً أبدياً، أم هو يتحدَّث عن أمّة عاصرها ولا عموم ولا إطلاق لكلامه على مدى التاريخ؟

الظاهر من هذه العبارات التي نقرؤها أنَّه يتحدَّث عن أمّة عاصرها، يقول: «فقد برز إليهم غلام أشبَهُ الناس خَلَقاً وخُلُقاً بنبيك محمّد 9 »، حينئذٍ الإمام الحسين C يدعو على هؤلاء الذين قتلوا علياً الأكبر، هذه المجموعة التي قتلت علي بن الحسين C لا يستحقون رضىً من الولاة، ولهذا فإنَّ ابن زياد أصبح يلاحقهم، وكذلك يزيد بن معاوية.

قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين C : يا عمر أين الكتاب الذي كتبت به إليك في قتل الحسين، قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب، قال: لتجيئن به، قال: ضاع، قال: والله لتجيئن به، قال: تُرك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً إليهنَّ بالمدينة، أمّا والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص كنت قد أديت

(١) الروم: ٢ و٣.

حقّه. قال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله، لوددت أنَّه ليس من بني زياد رجل إلاَّ وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وأنَّ حسيناً لم يُقتل، قال: فوَالله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله(١).

وذلك الذي قتل الحسين C وجاء برأسه إلى ابن زياد قائلاً:

إمـلأ ركـابي فضـةً وذهبـا أنـا قتلـت الملـك المحجبـا

قتلـت خيـر النـاس أُمّـاً وأبـا وخيـرهم إذ ينسـبون نسـبا

فقال له عبيد الله بن زياد: ويحك، فإن علمت أنَّه خير الناس أباً وأُمّاً لِمَ قتلته إذاً؟ فأمر به فضربت عنقه(٢).

هناك اتجاه آخر يقول: إنَّ الذين قتلوا الحسين C ليسوا من أهل الكوفة؛ لأنَّ هناك أدلّة تاريخية على أنَّ الكوفة بعد أن فُتحت على يد سعد بن أبي وقاص جاءت قبائل العرب من الجزيرة واليمن ليسكنوا الكوفة، فسكنها (٧٠) بدرياً، وأصحاب بدر ليسوا عراقيين، وسكنها (٣٠٠) من أصحاب بيعة الشجرة، و(١٢) ألف من أهل اليمن، وهذا كلّه قبل واقعة كربلاء، وهم من قضاعة، وغسّان، وبجير، وخثعم، وكندة، وحضرموت، والأزد، ومذحج، وحمير، وهمدان، وهذه الأسماء مرَّت علينا من ضمن الأسماء الذين شاركوا في قتل الحسين C ، وهم بالأصل من خارج العراق.

كما وجاءت قبائل عدنانية من مكّة والمدينة من قبيلة تميم، وبني بكر، وهم عبارة عن بني أسد، وغطفان، ومحارق، وغيرهم.

---

(١) مقتل الحسين لأبي مخنف: ٢٢٨.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٢.

إذن أصبح لدينا عشرات الآلاف في الكوفة هم من أبناء الجزيرة وليسوا من أبناء الكوفة. والحديث التاريخي عن مكوّنات الكوفة يومئذٍ يقول: إنَّ من جملة الجاليات التي سكنت الكوفة وبعشرات الآلاف من غير اليمانيين وغير العدنانيين هم الفرس، يقول المؤرِّخون إنَّ (٤) آلاف جندي من الفرس لمّا قُتل رُستم في معركة القادسية كما يَذكر (فلهاوزن) في كتاب (الدولة العربية) سكنوا الكوفة والتحقوا بعشيرة معيَّنة وأصبحوا بحماية تلك العشيرة، وهذا يعني أنَّ الجاليات غير العراقية أصبحت من المكوّنات الكبيرة، فأضحى لدينا في الكوفة الحجازي، واليماني، والفارسي، ومن الأنباط، ومن السريانية.

على هذا الأساس يقول هذا القائل: إنَّ الذي قتل الإمام الحسين C هم خليط من الجاليات، فيهم من أهل الكوفة، وفيهم من غيرها.

ولكن الحقيقة أنَّ هذا الدفاع غير مجدٍ؛ لأنَّ القضيّة ليست قضيّة مصطلحات، فنحن لا نتحدَّث عن شجرة الأنساب وجذر هؤلاء الناس، بل نتحدَّث عن المنطقة الجغرافية وأهل تلك المنطقة، فنقول: إنَّ الكوفة خرج أهلها ضدّ الحسين C بعد أن كانوا مع الحسين C ، أمّا أصولهم القبلية والعرقية فهي في معظم الحالات قد اختلطت، ولكنَّهم على كلّ الأحوال يُعتبرون عشائر كوفية، وهكذا الذين نصروا الإمام علياً C في حروبه صفين والجمل والنهروان هم أيضاً من أهل الكوفة، رغم أنَّ أصولهم القبلية والجغرافية ليست من الكوفة.

لقد قُتل الحسين C في كربلاء، والذين خرجوا على الإمام الحسين C هم هؤلاء المجموعة الذين أُصيبوا بهزيمة نفسية رغم

مـودَّتهم، ونحـن تقييمنـا لأصـل العـراق يومئـذٍ أنَّهـم أُصـيبوا بهزيمـة نفسـية نتيجـة الضـربات الموجعـة التـي تعرَّضـوا لهـا، القمـع اللامحـدود، ولكـنَّهم حـافظوا علـى درجـة عاليـة مـن الـولاء لأهـل البيـت G ، فـي الوقـت الـذي تخلَّـت عـنهم شـعوب أخـرى، وهـذه هـي نقطـة قـوّة يجـب أن نُسـجِّلها للشعب العراقي.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(٥ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة الخامسة:

قوة الجذب والطرد في شخصية

الإمام علي والإمام الحسين H

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله 9 : «يا علي، إنَّ فيك شبهاً من عيسى بن مريم، أحبّتهُ النصارى حتّى أنزلوه بمنزلة ليس بها، وأبغضتهُ اليهود حتّى بهتوا أُمّه»[١].

وقال 9 : «أبشِر يا علي، فإنَّ الله ﷻ قد عَهِد إليَّ أنَّه لا يحبّك إلاَّ مؤمن، ولا يَبغضك إلاَّ منافق»[٢].

الحديث هذه الليالي ليس عن شخصية الإمام علي C ، وإنَّما الحديث عن الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام علي C ، مقارنة بينها وبين حركة الحسين C من حيث الأهداف والنتائج والمناهج، ولقد تحدَّثنا فيما سبق عن ظاهرة طَغَت على حياة الإمام علي C هي (ظاهرة المبدئية القصوى).

قوة الجذب وقوة الطرد:

اليوم نتحدَّث عن قضيّة أخرى ليست بعيدة عن ظاهرة المبدئية القصوى، وهي (قوة الجذب وقوة الطرد في شخصية الإمام علي C وفي سياسته)، فالإمام C كقائد وإمام وهادي أين هي قوة الجذب عنده، وما هو مقدارها؟

وهكذا قوة الطرد، وما هو مقدارها؟

---

(١) أمالي الصدوق: ٢٥٦/ ح ٤٦٢/ ٥٤؛ ونحوه في: مسند أحمد ١: ١٦٠؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٣.

(٢) أمالي الصدوق: ١٩٧/ ح ٢٠٨/ ٢؛ وفي مسند أحمد ١: ١٢٨؛ وسنن الترمذي ٥: ٣٠٦: عن علي C قال: «لقد عهد إليَّ النبي 9 أنَّه لا يحبّك إلاَّ مؤمن، ولا يبغضك إلاَّ منافق».

قوة الجذب لدى الإمام علي C :

هنا سنجد _ وبنظرة موضوعية فاحصة _ أنَّ الإمام علياً C تمتَّع بقوة جذب عالية جدّاً، كما تمتَّع بقوة طرد عالية أيضاً، بحيث أصبح مقياساً في جذبه وفي طرده، فالذي ينجذب إلى الإمام علي C فهو مؤمن، والذي يُطرد من الإمام علي C فهو منافق، وهذا هو ما امتاز به الإمام علي C دون الآخرين، وفيما هو ثابت تاريخياً.

لنبدأ أوّلاً فيما قال رسول الله 9 في شخصية الإمام علي C .

وأنتم تعرفون أنَّ القائد يجب أن يمتلك قدرة جذب كبيرة، ولهذا فإنَّ القرآن يقول عن النبي 9 : [وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ][(١)]، فالقائد لا يجوز أن يكون فظ القلب، بل يجب أن يتمتَّع بقوة جذب.

ماذا قال رسول الله 9 عن الإمام علي C ؟

أبو سعيد الخدري يقول في الإمام علي C أنَّه أصبح مقياس الإيمان والنفاق، يقول: (ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله 9 إلاَّ ببغضهم علياً)[(٢)].

كما هو قسيم الجنّة والنار، فقد ثبت في الخبر عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله 9 قال: «علي قسيم الجنّة والنار»[(٣)].

كما ثبت عن رسول الله 9 قوله: «حبُّ علي إيمان، وبُغضُه نفاق»[(٤)].

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٠؛ تاريخ دمشق ٤٢: ٢٨٤.

(٣) أمالي الصدوق: ١٤٩/ ح ١٤٦/ ١؛ ينابيع المودة ١: ١٧٣/ ح ٢٢.

(٤) أمالي الصدوق: ٥٢٥/ ح ٧٠٩/ ٢؛ مناقب الخوارزمي: ٢٩٣.

ويقـول أبـو ذر: (مـا كنّـا نعـرف المنـافقين إلاَّ بـثلاث: بتكـذيبهم الله ورسوله، والتخلّف عن الصلوات، والبغض لعلي بن أبي طالب C)[١].

فـلا يمكـن للمنـافقين الاقتـراب مـن علـي C ؛ لأنَّ هنـاك فاصـلة تُسـمّى قـوّة طـرد بـين المنـافقين وبـين الإمـام علـي C ، ولـم تكـن هـذه الظـاهرة هـي مجـرد حـديث لرسـول الله 9 ، بـل كـان لهـا علـى أرض الواقـع مصـداقية، وهـذه الروايـة مـذكورة فـي اُمّهـات مصـادر أهـل السُـنّة، ويقـول عنهـا الحـاكم فـي المسـتدرك أنَّهـا حـديث صـحيح علـى شـرط مسـلم ولـم يخرجاه.

ورواه أيضـاً أحمـد بـن حنبـل[٢]، والترمـذي[٣]، والنسـائي[٤]، والبغـدادي[٥]، وآخـرون أنَّ رسـول الله 9 قـال فـي علـي C : «لا يحبُّـك إلاَّ مؤمن ولا يبغضك إلاَّ منافق».

لقـد كـان الإمـام علـي مقيـاس الإيمـان ومقيـاس النفـاق، فـي الوقـت الـذي لا نسـتطيع فيـه أن نقـول: إنَّ القـرآن هـو مقيـاس النفـاق والإيمـان؛ لأنَّ المنـافقين هـم أيضـاً يتلـون القـرآن، والـذين قـاتلوا الإمـام عليـاً C كـانوا يقـرؤون القـرآن، والـذين قتلـوا الإمـام الحسـين C كـانوا يقـرؤون القـرآن، إذاً نحـن لا نسـتطيع أن نجعـل الارتبـاط بـالقرآن مقياسـاً، ولكـن الإمـام عليـاً C كان مقياساً (بارومتر) عجيباً في معرفة المنافقين ومعرفة المؤمنين.

---

(١) مستدرك الحاكم ٣: ١٢٩؛ كنز العمال ١٣: ١٠٦/ح ٣٦٣٤٦.

(٢) مسند أحمد ١: ١٢٨.

(٣) سنن الترمذي ٥: ٣٠٦.

(٤) سنن النسائي ٨: ١١٦.

(٥) تاريخ بغداد ٨: ٤١٦.

ثانياً: حبّ النبي للإمام علي C ، فلننظر قوة الجذب عند الإمام علي C ، لاحظوا حبَّ النبي 9 للإمام علي C ، الحديث موجود في الصحاح ومصادر أبناء العامّة كالنسائي، فقد روى عن الإمام علي C أنَّه قال: «كانت لي منزلة من رسول الله 9 لم تكن لأحد من الخلائق، فكنت آتيه في كلّ سَحَر، فأقول: السلام عليك يا رسول الله، فإن تنحنح انصرفت إلى أهلي، وإلاَّ دخلت عليه»[1].

ثالثاً: حبُّ الله تعالى للإمام علي C ، ففي الحديث المعروف: «لأُعطينَّ الرايةَ غداً إلى رجل يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله»[2]، فهذه القضيّة يجب أن ندخلها في دراسة شخصية هذا الإنسان الذي يُحبّه الله، ويُحبّه رسوله والمؤمنون، إذن ما هي قدرة هذه الشخصية وقوة الجذب لديها؟

رابعاً: حبّ أهل السماء للإمام علي C ، كم هي قدرة الإمام علي C على جذبهم له؟

الرواية عن ابن عبّاس في مصادر أبناء العامّة، أنَّ رسول الله 9 ليلة أُسري به إلى المعراج قال:

«ما مررتُ بسماءٍ إلاَّ وأهلها يشتاقون إلى علي بن أبي طالب C ، وما في الجنّة نبي إلاَّ وهو يشتاق إلى علي»[3]، أليست هذه قدرة جذب!؟ هل هو لمجرد أنَّه صهر رسول الله؟ لا، بل هناك قوة جذب في هذه الشخصية.

---

(١) سنن النسائي ٣: ١٢؛ مطالب السؤول: ١٠٧؛ ينابيع المودة ١: ٢٦٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣١٨؛ صحيح البخاري ٤: ٢٠.

(٣) ذخائر العقبى: ٩٥؛ ينابيع المودة ٢: ١٨٥/ ح ٥٣٨.

خامساً: روى المحدِّثون في الصحاح أنَّ رسول الله 9 قال: «يا علي، إنَّ فيك شبهاً من عيسى بن مريم، أحبّتهُ النصارى حتّى أنزلوه بمنزلة ليس بها، وأبغضتهُ اليهود حتّى بهتوا أُمّه»[١]، هكذا علي C أعداؤه بهتوا أبا طالب بغضاً للإمام علي C ، وهم يتحدَّثون عن كفر أبي طالب ولا يتحدَّثون عن كفر أبي سفيان، وهذا نكاية بالإمام علي C ، وفي مقابل هذا البغض أحبّه آخرون أكثر من استحقاقه فعبدوه[٢]، وهذه الظاهرة لم توجد في نبي من الأنبياء، رسول الله 9 أعطى الإمام علياً هذه الميزة في قوة جذب وقوة الطرد.

سادساً: ماذا أعطته السماء؟ جبرئيل في معركة أُحُد _ كما هو ثابت في روايات المؤرِّخين _ نادى في السماء: «لا سيف إلاَّ ذو الفقار، ولا فتى إلاَّ علي»[٣]، هذه ليست قضايا فقهية، هذه قوة جذب، وهذا تاريخ، ولكن يحتاج إلى تحليل.

في معركة بدر أيضاً، انتدب رسول الله 9 الناس ليلة بدر إلى الماء، فانتدب علي C ، فخرج وكانت ليلة باردة ذات ريح وظلمة، فخرج بقربته، فلمّا كان إلى القليب (البئر) لم يجد دلواً، فنزل في الجب

(١) أمالي الصدوق: ٢٥٦/ ح ٤٦٢/ ٥٤؛ ونحوه في: مسند أحمد ١: ١٦٠؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٣.

(٢) في الرواية عن أبي عبد الله الصادق C ، قال: «أتى قوم أمير المؤمنين C فقالوا: السلام عليك يا ربنا! فاستتابهم فلم يتوبوا، فحفر لهم حفيرة، فأوقد فيها ناراً، وحفر حفيرة أخرى إلى جانبها وأفضى ما بينهما، فلمّا لم يتوبوا ألقاهم في الحفيرة، وأوقد في الحفيرة الأخرى حتّى ماتوا» (أمالي الطوسي: ٦٦٢/ ح ١٣٧٧/ ٢١).

(٣) معاني الأخبار: ١١٩/ باب معنى قول النبي 9 : «أنا الفتى، ابن الفتى، أخو الفتى»/ ح ١؛ تاريخ الطبري ٢: ١٩٧؛ البداية والنهاية ٦: ٦.

تلك الساعة فملأ قربته ثمّ أقبل، فاستقبلته ريح شديدة فجلس حتّى مضت ثمّ قام، ثمّ مرَّت به أخرى فجلس حتّى مضت ثمّ قام، ثمّ مرَّت به أخرى فجلس حتّى مضت ثمّ قام. فلمّا جاء قال له النبي 9 : «ما حبسك يا أبا الحسن؟»، فقال: لقيت ريحاً ثمّ ريحاً ثمّ ريحاً شديدة، فأصابتني قشعريرة. فقال: «أتدري ما كان ذلك، يا علي؟» فقال: لا، فقال 9 : «ذلك جبرئيل في ألف من الملائكة وقد سلَّم عليك وسلَّموا، ثمّ مرَّ ميكائيل في ألف من الملائكة فسلَّم عليك وسلَّموا، ثمّ مرَّ إسرافيل في ألف من الملائكة فسلَّم عليك وسلَّموا»[(١)].

وقد نظم شاعر أهل البيت السيد الحميري هذه القصيدة يقول:

أقسِمُ بالله وآلائِهِ ... والمرءُ عمّا قال مسؤولُ
إنَّ علي بن أبي طالبٍ ... على التُقى والبِّر مجبولُ
ذاك الذي سلَّم في ليلةٍ ... عليه ميكالٌ وجبريلُ
جبريلُ في ألفٍ وميكالُ في ... ألفٍ ويتلوهُم سرافيلُ
ليلةُ بدرٍ مدد أُنزلوا ... كأنَّهم طيرٌ أبابيلُ[(٢)]

فسلام ثلاثة آلاف من الملائكة على إنسان في ليلة واحدة معناه أنَّ لديه قدرة جذب عالية لأهل السماء.

سابعاً: قدرة جذب الإمام علي C على مستوى المناورة السياسية، لقد كان المنافس السياسي الشديد للإمام علي C هو عمر بن الخطاب، فبغضّ النظر عن الجانب المذهبي للمسألة، ولنترك الجانب

(١) قرب الإسناد: ١١١/ ح ٣٨٧.
(٢) أمالي الطوسي: ١٩٨/ ح ٣٣٩/ ٤١.

المذهبي ولنتحدَّث عن التاريخ السياسي، فإنَّ هناك تنافس بين الرجلين، لكن سياسة الإمام علي C وقوة الجذب عنده فرضت على المسلمين موقعاً كبيراً للإمام علي C ، وفرضت على خليفة المسلمين يومئذٍ وهو عمر بن الخطاب أن يقوم ويقعد وهو يقول: (لا أبقاني الله لمعضلةٍ ليس لها أبو الحسن)[١]، وهكذا حتّى استطاع أن يفرض شخصيته على الواقع الاجتماعي، بحيث أصبح المسلمون يتحدَّثون عن بيعة علي بعد عمر، مما اضطر عمر بن الخطاب إلى أن يجعله أحد الشورى، ويهدّد من قال: (لو قد مات عمر بايعنا علياً)[٢]، هذا يدلّل على قوة الجذب، وأنَّ كلّ المحاولات المضادة لم تنجح في عزل الإمام علي C وخروجه من الساحة السياسية، الإنسان إذا سقط سياسياً يصبح جليس الدار، لكن الإمام علي C كانت لديه قوّة الشخصية، ومع مواقفه السياسية كان هو الرجل الأوّل في العالم الإسلامي، ورغم كل التحدّيات والمناورات والانقلابات التي حدثت، كان مع ذلك هو الرجل الأوّل.

ثامناً: قوة الجذب عند هذه الشخصية جعلته الخليفة الوحيد الذي بويع بإجماع المسلمين، فبيعة أبي بكر لم تكن بالانتخابات الحرّة، بل كانت عبر سجال ومعركة السقيفة، وحكومة عمر بن الخطاب أيضاً

(١) دلائل الإمامة: ٢٢؛ أنساب الأشراف: ١٠٠.

(٢) في المصادر بدل علياً: فلاناً، وهذا دأبهم يضعون كلمة فلاناً مكان الأسماء الصريحة. راجع: مسند أحمد ١:٥٥؛ صحيح البخاري ٨ : ٢٥.
قال ابن أبي الحديد المعتزلي في كتابه (شرح نهج البلاغة ٢: ٢٥): وقال شيخنا أبو القاسم البلخي: قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: إنَّ الرجل الذي قال: لو قد مات عمر لبايعت فلاناً، هو عمّار بن ياسر، قال: لو قد مات عمر لبايعت علياً C ، فهذا القول هو الذي هاج عمر أن خطب بما خطب به.

كانت عَبرَ وصية أبي بكر، وحكومة عثمان بن عفان كانت عبر شورى سداسية مفبركة، فلم تكن هناك انتخابات حرّة، الإمام علي C هو الخليفة الوحيد الذي تمتَّع بقوة جذب، حيث فرض شخصيته وبايعه المسلمون، وتدكدكوا على باب بيته يطالبونه بقبول البيعة(١)، برغم أنَّ (٢٥) سنة مضت من التنحية السياسية ومحاولات العزل، لكن بقي علي C نجماً لامعاً يمتلك قوة جذب وقوة في الطرح، فليس من السهل أن يناور الإنسان (٢٥) سنة مع انقلابات عسكرية واحدة بعد الأخرى.

---

(١) وهو ما أفصح عنه أمير المؤمنين C في خطبته المعروفة بـ (الشقشقية) قال: «أما والله لقد تقمَّصها ابن أبي قحافة، وإنَّه ليعلم أنَّ محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عنّي السيل، ولا يرقى إليَّ الطير، فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتّى يلقى ربه، فرأيت أنَّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذىً، وفي الحلق شجاً، أرى تراثي نهباً. حتّى مضى الأوّل لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده، (ثمّ تمثَّل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر

فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشد ما تشطرا ضرعيها، فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها، ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلوّن واعتراض. فصبرت على طول المدّة وشدّة المحنة. حتّى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أنّي أحدهم، فيا لله وللشورى! متى اعترض الريب فيَّ مع الأوّل منهم حتّى صرت أقرن إلى هذه النظائر، لكنّي أسففت إذ أسفوا، وطرت إذ طاروا. فصغى رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره مع هن وهن، إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه. وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته، فما راعني إلاَّ والناس كعرف الضبع إليَّ ينثالون عليَّ من كل جانب، حتّى لقد وطئ الحسنان، وشقَّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم...» الخ. (نهج البلاغة ١: ٣٠/ رقم ٣).

بيعة الإمام هل كانت انتخابية؟

وهناك سؤال: هل أنَّ بيعة الإمام علي C كانت انتخابية؟

الجواب: نعم، فقد بويع بالأكثرية الساحقة أو المطلقة.

في كلّ المعارك العسكرية والسياسية والإعلامية والاقتصادية كان الإمام علي C يتألَّق في المحافظة على المبادئ وقمع الهوى. وفي أيام حكمه كانت حروب صفين والجمل والنهروان، ثلاثة حروب طاحنة لم يستخدم الإمام علي C فيها دكتاتورية، ولا فرض على أحدٍ قتالاً، وإنَّما باعتماد النصيحة استطاع بقوة شخصيته وقوة جاذبيته أن ينتصر في معارك الجمل ويسحق قوات الطرف الآخر، واستطاع أن ينتصر في معاركة صفين وأن يسحق المقابل. نعم، حدثت فتنة المصاحف، لكن الحرب انتهت وحُسمت هي الأخرى لصالح الإمام علي C ، وحتّى وصلنا إلى حرب النهروان، حيث اشترك اثنا عشر ألف من الخوارج ضدّ الإمام علي C ، ولكنَّه سعى أن يعيد أكثرهم إليه، فيما سحق الباقين في هذه المعركة.

أيّة قوة جذب كانت لدى الإمام علي، بحيث تجعل من شعب الكوفة من يستقبله ويخوض معه حروباً دامية كلَّفتهم ستين ألف قتيل! وتصوّروا أنَّ أمَّة يدخلها قائد قادم من المدينة المنوّرة، لكن قوة الجذب عند هذا الإنسان بدرجة أن يعبئهم لثلاث حروب متتالية، مرّة يقاتلون عائشة، ومرّة معاوية، ومرّة يقاتلون أناساً آخرين متمرّدين هم أصحاب الجباه السود. ولقد كان جيش الإمام علي C يستبسل في القتال على بيّنة وبصيرة.

نذكر هذا الأمر لبيان ما كان يتمتَّع به الإمام علي C في اعتماد منهج (المبدئية القصوى). كما كان يتمتَّع بـ (جاذبية قصوى)، بعض الناس ربّما لا يعرفون الإمام علي إلاَّ بقوة الطرد التي تدعو للانشقاق

عليه، بينما الواقع ليس كذلك، فالإمام علي C استطاع في كلّ المؤامرات المضادّة أن يكوِّن قوّة كبيرة جدّاً تقضي على هذه التناقضات، ولم يستخدم السيف، ولكنَّه عبّأ الناس عن طريق الإقناع وقوة الجذب، وهذا ما تفرَّد به الإمام علي C .

أُسس الجذب:

وحينئذٍ، ما هي أُسس الجذب عند الإمام علي C ؟ بالتأكيد لم يكن الإغراء المادي، ولا الوعود الدنيوية، ولا التخويف والإرهاب، وإنّما يمكن الإشارة إلى الأسس التالية:

أوّلاً: قوة الشخصية.

ثانياً: المبادئ الرسالية.

ثالثاً: المواقف البطولية.

اليوم نستطيع أن نقرأ تأثيرات الإمام علي C على طول التأريخ؛ لأنَّ الإمام علياً C لم ينتهِ بنهاية عمره الشريف، بل كانت وما تزال شخصيته ومواقفه ترسم المنهج للأحرار، فالإمام فرض نفسه على مرِّ التأريخ على الأحزاب والحكومات والقادة، وحتّى وثائق الأمم المتّحدة، حتّى أنَّ (جورج جرداق) الكاتب المسيحي كتب عن الإمام علي C أروع موسوعة وهي كتاب (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية)، وهكذا الكاتب المصري (عبد الفتاح عبد المقصود) في (المجموعة الكاملة في حياة الإمام علي C)، وهو كاتب من أبناء العامّة وليس من الشيعة، لكنَّه كتب شيئاً عظيماً عن الإمام علي C لم يكتبه ولا غيره عن الآخرين.

ما هي فلسفة الحروب؟

وهنا سؤال: إذا كانت الهداية والضلال من الله تبارك وتعالى، فلماذا الحرب وإراقة الدماء؟ وهذا السائل يستشهد بقوله تعالى: [وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ][1]، فإذا كان النصح لا يفيد، فلماذا القتال؟ وإذا كانت هذه الجماعة ضالّة في علم الله تعالى، فلماذا الحروب والمواعظ؟!

القرآن الكريم يجيب على هذا التساؤل، فيقول: [لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ][2]، لا بدَّ من إقامة الحجَّة، والذي يَضِلّ يجب أن تكون هناك حُجَّة قد أقيمت عليه من الله، كي لا يقول: إلهي لم أكن أعلم. والذي يهتدي أيضاً لا بدَّ أن يهتدي عَن بَيِّنةٍ، وليست القضية قضية وراثية.

والقرآن الكريم قال أيضاً: [لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ][3]، وهذا بحث فلسفي في سُنّةِ الامتحان وسُنّةِ الابتلاء، فالناس ينجحون عبرَ الامتحان وعبرَ الابتلاء، وبدون الامتحان لا تتميَّز شخصية الإنسان، [فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ][4].

هذا هو الإمام علي C في قوة الجذب، وفي قوة الطرد، وفي ظاهرة المبدئية القصوى.

---

(١) هود: ٣٤.
(٢) الأنفال: ٤٢.
(٣) الأعراف: ١٦٤.
(٤) الأعراف: ٣٠.

قوة الجذب لدى الحسين C :

لننتقـل إلـى الإمـام الحسـين C ، الـذي كـان يتمتَّـع بقـوة جـذب عجيبـة، ولـولا أنَّنـا نعـرف عظمـة الإمـام علـي C لقـال قائـل: إنَّ قـوة الجـذب التـي يتمتَّـع بهـا الإمـام الحسـين C هـي أكثـر منهـا لـدى الإمـام علي C .

لنرى قوة الجذب التي يتمتَّع بها الإمام الحسين C .

ماذا نجد في الإمام الحسين C ؟

أوّلاً: حبّ الله تعالى له:

الروايـات المتّفـق عليهـا فـي مصـادر السُـنّة ومصـادر الشـيعة أنَّ رسـول الله 9 قـال: «حسـينٌ منّـي وأنـا مـن حسـين، أحـبَّ اللهُ مَـن أحـبَّ حسـيناً»[1]، هنـاك علاقـة بـين الحسـين C وبـين الله تبـارك وتعـالى، ومـن خـلال حـبّ الحسين C فإنَّ الله تعالى يحب الكثيرين ممن يحبّون الحسين C .

نسـتمر فـي هـذا الموضـوع، ونصـعد إلـى السـماء، حيـث الروايـة تقـول: بينمـا عبـد الله بـن عمـرو بـن العـاص فـي ظـل الكعبـة إذ رأى الحسـين C مقـبلاً، فقـال عبـد الله: (ألا أخبـركم بأحـبِّ أهـل الأرض إلـى أهـل السـماء؟ قـالوا: بلـى، قـال: هـذا هـو الماشـي)[2]، هـذه هـي قـوّة الجـذب، وعبـد الله بـن عمـرو لـم يتحـدَّث مِـن عنـد نفسـه، إنَّمـا ذلـك هـو حـديث رسـول الله 9 : «مـن أحـبَّ أن ينظـر إلـى أحـبِّ أهـل الأرض إلـى أهـل السـماء، فلينظـر إلـى

---

(١) راجـع: مناقـب آل أبـي طالـب ٣: ٢٦٦؛ ذخـائر العقبـى: ١٣٣؛ مسـند أحمـد ٤: ١٧٢؛ سـنن ابن ماجة ١: ٥١؛ سنن الترمذي ٥: ٣٢٤؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٧٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٨؛ مجمع الزوائد ٩: ١٧٧؛ تاريخ دمشق ٣١: ٢٧٥.

الحسين»[١]، إذن قوة جذب استوعبت أهل السماوات وأهل الأرض، ومن الثابت في التأريخ أنَّه لا يُعرف أحدٌ بكى عليه الأنبياء مثلما بكوا على الحسين C ، فنحن من الشيعة لا عجب أن نبكي عليه؛ لأنَّ الأنبياء قَبل الحسين C بآلاف السنين كانوا يبكون على الحسين C [٢]!!

موقع الحسين C وشخصيته العظيمة هي مثل النور الذي يصعد فيضئ التأريخ، الحسين C شعلة من النور في سماء البشرية كلّها، ولهذا كان الأنبياء يبكون على الحسين C ، وكان رسول الله 9 يبكي عليه حتّى يعرف ذلك في وجهه[٣]. فهناك مغناطيسية قوية للحسين C هي التي أبكَت الأنبياء، الشخصية العظيمة للحسين C هي التي مغنَطت وكهربَت الأنبياء فكانوا يبكون على الحسين C ، حتّى نصل إلى الزمن المعاصر للحسين C ، فرغم أنَّ الذين نصروا الحسين C سبعون شخصاً ونيف، لكن الذين اقتنعوا بحركة الإمام الحسين C هم آلاف مؤلَّفة، مكّة والمدينة بكت على الحسين C رغم أنَّهم لم

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٨.

(٢) راجع: إرشاد القلوب للديلمي: ٤٢١؛ فرائد السمطين ٢: ١٧١؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٠٨.

(٣) في الرواية عن أُمّ سَلَمَة قالت: كان النبي 9 نائماً في بيتي، فجاء حسين يدرج، قالت: فقعدت على الباب فسبقته مخافة أن يدخل فيوقظه، قالت: ثمّ غفلت في شيء، فدبَّ فدخل فقعد على بطنه، قالت: فسمعت نحيب رسول الله 9 ، فجئت فقلت: يا رسول الله، والله ما علمت به؟ فقال: «إنَّما جاءني جبريل C وهو على بطني قاعد، فقال لي: أتحبّه؟ فقلت: نعم، قال: إنَّ أمّتك ستقتله! ألا أريك التربة التي يقتل بها؟»، قال: «فقلت: بلى، قال: فضرب بجناحه فأتى بهذه التربة». قالت: فإذا في يده تربة حمراء، وهو يبكي ويقول: «يا ليت شعري من يقتلك بعدي؟». راجع: ترجمة الإمام الحسين C من تاريخ دمشق لابن عساكر: ٢٥٩، أو ١٤: ١٩٤.

ينصروه، وهكذا الآلاف من الذين بايعوا الحسين C من العراق والكوفة والبصرة.

المسلمون يومئذٍ يتطلَّعون للحسين C ، ماذا يفعل الحسين C ؟ ولهذا تجدون أنَّ أصحاب الحسين C أبدوا من البسالة والبطولة والعشق ما لا يمكن وصفه إلاَّ من خلال مشاعر العشق والعاشقين، والحسين C أجازهم ورخَّصهم، ومع ذلك يقوم إليه مسلم بن عوسجة، فيقول: أنحن نخلي عنك، وبما نعتذر إلى الله في أداء حقّك؟ لا والله حتّى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، والله لا نخلّيك حتّى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله فيك، أما والله لو علمت أنّي أُقتل ثمّ أحيى ثمّ أُحرق ثمّ أحيى ثمّ أُذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرَّة ما فارقتك حتّى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنَّما هي قتلة واحدة، ثمّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

وقام زهير بن القين فقال: والله لوددت أنّي قتلت نشرت ثمّ قتلت حتّى أُقتل هكذا ألف مرّة، وأنَّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وتكلم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فجزاهم الحسين C خيراً[1].

الاستعداد للتضحية بشكل لا يمكن تفسيره إلاَّ بعملية العشق والذوبان في الشخصية، لقد وصل مستوى الجذب لدى هؤلاء إلى حالة

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٢؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٣.

الانـدكاك، بحيـث أنَّ شخصـيتهم ذابـت فـي الحسـين C ، حـين رفعـوا رؤوسـهم إلـى السـماء أصبحوا ينظـرون الجنّـة ومـا فيهـا، لقـد كـان ذلـك حـين عبـروا شخصـياتهم الفرديـة وذابـوا فـي روح الحسـين C . زهيـر ومسـلم وبريـر خرجـوا مـن شخصـيتهم واتحـدوا فـي شخصـية الحسـين C ، فأصبحوا يرون الجنّة وما فيها وصورها وبساتينها[١].

تعلمـون أنَّ ابـن زيـاد أغلـق الكوفـة ووضـع المسـالح علـى أطرافهـا فـلا يـدخلها أو يخـرج منهـا أحـد، كـي لا يلتحقـوا بالحسـين C ، وكـلُّ مـن يُلقـى عليـه القَـبض فـي نقـاط (السـيطرة) يُقتـلُ فـوراً، ومـع كـلّ هـذا كانـت هنـاك اسـتعدادات كبيـرة لنصـرة الحسـين C ، لقـد كانـت قلـوب النـاس مـع الحسـين C ، مـن البصـرة التحقـوا بالحسـين C ، ومـن جـيش عمـر بـن سـعد أيضـاً مجموعـة التحقـت بالحسـين C ، كمـا تقـول الروايـة أنَّ ثلاثـين شخصـاً التحقـوا بالحسـين يـوم عاشـوراء[٢]، وكـان مـن جملـتهم الحـر بـن يزيـد الريـاحي فـي القصـة المعروفـة وهـو مـن زعمـاء الكوفـة ومشـايخها، فماذا عند الحسين C حتّى يجذب الحر بن يزيد الرياحي؟!

---

(١) روى جعفـر بـن محمّـد بـن عمـارة عـن أبيـه، عـن أبـي عبـد الله C قـال: قلـت لـه: أخبرنـي عـن أصـحاب الحسـين C وإقـدامهم علـى المـوت؟! فقـال: «إنَّهـم كُشـف لهـم الغطـاء حتّـى رأوا منـازلهم مـن الجنّـة، فكـان الرجـل مـنهم يقـدم علـى القتـل ليبـادر إلـى حـوراء يعانقها، وإلى مكانه من الجنّة» (راجع: علل الشرائع ١: ٢٢٩/ باب ١٦٣/ ح ١).

وروي أنَّ برير بن خضير الهمداني جعل يضاحك عبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري، فقال له عبد الرحمن: يا برير أتضحك؟ ما هذه ساعة باطل، فقال برير: لقد علم قومي أنّني ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، وإنَّما أفعل ذلك استبشاراً بما نصير إليه، فوَالله ما هو إلاَّ أن نلقى هؤلاء القوم بأسيافنا نعالجهم ساعة ثمّ نعانق الحور العين. (راجع: اللهوف: ٥٨).

(٢) البداية والنهاية ٨: ١٨٤.

تعالوا نصل إلى قوة الجذب بعد شهادته، إلى يومنا هذا، تأثيرات الحركة الحسينية على العالم الإسلامي لا يمكن أن تُسجل مثلها لغير الحسين C بعد رسول الله 9 ، وبعد الخطوط العريضة التي رسمها الإمام علي C والدور العظيم للإمام الحسن C ، فالحسين نجم متألّق يجذب القلوب على مرِّ التأريخ إلى يومنا هذا، الذي يقول فيه الشاعر:

كَـذبَ المـوتُ فالحسـينُ مُخلَّـدْ كلّمـا أخلـقَ الزمـانُ يَتَجَـدَّدْ

وننتقل إلى المشهد الذي نراه في زماننا، وهو مشهد زوّار الحسين C ، أيّ إنسان في العالم يتمتَّع بكسب الزائرين وجذبهم مثل الحسين C !؟ نحن نقول: إنّنا لا نجد هذا عبر التاريخ لأحد كما نجده للإمام الحسين C ، نحن لا نبالغ في ذلك، رسول الله 9 يزوره الملايين سنوياً، لكن هناك لا يوجد قطع أيدي ولا مطاردة ولا ملاحقة ولا سجن مؤبَّد ولا إعدام، بينما الإمام الحسين C يزوره عشرات الملايين إن لم نقل مئات الملايين سنوياً ومن كل العالم، لكن في ظل ظروف الإرهاب وانعدام الخدمات والسلطات المضادة على طول التأريخ، ومع ذلك فها هو الإمام الحسين C بهذا المقدار يجذب الناس.

حقائق في مشهد الزيارة:

أوّلاً: الزيارة المليونية:

فبالرغم من أنَّ العراق لا يزيد تعداد سكّانه على ثمانية وعشرين مليوناً، لكن الزوّار الذين يزورونه الآن وحتّى في عصر الطاغية صدام حينما فُرض عليه أن يرفع الحصار كان عدد الزوّار يصل إلى أربعة أو خمسة ملايين إنسان، وفي تلك الظروف الصعبة جدّاً.

ثانياً: يُزار مشياً على الأقدام:

فالناس يذهبون إلى رسول الله 9 بالطائرات والحافلات وأحدث السيارات، وأيضاً يجتمع في مناسبة شهادة الإمام علي بن موسى الرضا C في خراسان أقصى التقارير أربعة ملايين زائر من مجموع سكّان إيران الذي يزيدون على سبعين مليون، ولا يوجد هناك ممانعة ولا سلطات مضادّة، لكن الإمام الحسين C يمتلك هذه القدرة من الجذب بحيث يُزار في تلك الظروف ومشياً على الأقدام لمئات الكيلومترات، وهذه الظاهرة تتجدَّد سنوياً، وليس الآن فقط، بل كان هذا على مرِّ التاريخ.

ثالثاً: البذل والعطاء من قِبَل الناس:

وهذه الظاهرة لا تجدها في أيّ موضع آخر، البذل لزائري الإمام الحسين C ، ويفتخر الناس بذلك ويتسابقون إليه، وهذه قوة جذب عجيبة تصل إلى مستوى التنافس على غسل أقدام الزائرين.

رابعاً: ظاهرة البكاء:

حيث لا يعرف التاريخ وإلى يوم القيامة أحد سالت عليه الدموع بمقدار ما سالت على الإمام الحسين C ، ولا نستطيع أن نفسِّر هذا إلاَّ بمقدار الجذب. عيسى بن مريم صُلِبَ من وجهة نظر النصارى، لكن لم يكن هناك بكاء ولطم ودموع مثل ما يوجد في قضية الحسين C ، هذه من مميّزات شخصية الإمام الحسين C .

خامساً: استقبال الملائكة للزوار:

فقد ثبت في الخبر أنَّ أربعة آلاف مَلَك هبطوا يومَ عاشوراء ولم يُدركوا الإمام الحسين C إلاَّ بعد مقتله، كما تقول الرواية عن الإمام

الباقر C : «أربعة آلاف ملك شعث غبر يبكون الحسين إلى يوم القيامة، فلا يأتيه أحد إلاَّ استقبلوه، ولا يمرض أحد إلاَّ عادوه، ولا يموت أحد إلاَّ شهدوه»(١).

نحن نعلم أنَّ مقام النبي أعظم، ومقام الإمام علي أعظم، لكن هذه القضيّة هي من اختصاصات الإمام الحسين C . أربعة آلاف ملك يمثّلون لجنة استقبال الزوّار. وهذا قد نفسِّره على أنَّه عملية ثواب، وأنَّ الله تبارك وتعالى يريد أن يتفضَّل على الحسين C وعلى شيعة الحسين، ذلك صحيح طبعاً، ولكن هناك بُعدٌ أعمق هو قوة الجذب لدى الإمام الحسين C التي تفاعلت إلى أن ارتفعت إلى السماء، فأنزلت الملائكة يستغفرون إلى زوّاره.

نحن نعتقد أنَّ الإمام الحسين غيَّر التاريخ ونجح في ثورته عبَر قوة الجذب وعبر الأساليب التي استخدمها، وهو لا يملك سلطاناً ولا سلاحاً ولا أموالاً.

يا ميتاً ترك الألباب حائرة   وفي العراق ثلاثاً جسمُهُ تُركا

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

* * *

---

(١) كامل الزيارات: ١٧٤/ باب بكاء الملائكة على الحسين C / ح ٢٣١/ ١١.

(٦ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة السادسة:

حركة الزهراء J

دراسة مقارنة بينها وبين حركة الحسين C

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله 9 : «فاطمة بضعةٌ منّي يريبني ما رابها، ويؤذيني ما يؤذيها»[١].

وقال 9 : «إنَّ الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها»[٢].

حديثنا الليلة عن حركة الزهراء J ، وليس الحديث عن موقع الزهراء J ومنزلتها وشخصيتها، هو حديث مهمّ طبعاً، لكن القضيّة التي لا جدل فيها في الفكر الإسلامي أنَّ الزهراء J تمثّل سيدة نساء العالمين.

نعم، قد يوجد جدل في الفكر الإسلامي فيمن هو الأفضل، علي C أم غير علي C من الصحابة، وهكذا في الأئمّة من أهل البيت G . قد يوجد جدل حول موقعهم العلمي، لكن في شخص الزهراء J ليس هناك جدل عند كل المسلمين بأنَّ الزهراء J هي سيدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين، وهذه من الملاحظات المهمّة، أنَّه لا يوجد بين اثنين من المسلمين جدل في عظمة شخصية الزهراء J وأهمية منزلتها. ولهذا كان انتساب الأئمّة G للزهراء يعطيهم موقعاً متميّزاً، فيقال: (هذا ابن فاطمة)، يعني أنَّكم ليس لديكم مشكلة مع

---

(١) ذخائر العقبى: ٣٧؛ صحيح مسلم ٧: ١٤١؛ سنن ابن ماجة ١: ٦٤٤/ ح ١٩٩٨؛ سنن الترمذي ٥: ٣٥٩/ ح ٣٩٥٩.

(٢) أمالي الصدوق: ٤٦٧/ ح ٦٢٢/ ١؛ كنز العمال ١٢: ١١١/ ح ٣٤٢٣٧.

فاطمة، ربما لديكم مشكلة مع علي C ، لكن (هذا ابن فاطمة)؛ لأنَّ فاطمة J كانت لا يتنازع فيها اثنان من المسلمين، ولهذا فهي تحتل قدسية كبيرة جدّاً.

رسول الله 9 قال عنها أنَّها: «سيدة نساء العالمين»[1].

وقال: «فاطمة بضعة منّي»، ولم يكن ذلك لمجرد بيان المودّة والمحبّة، بل أضاف إليها رسول الله قوله 9 : «يؤذيني ما يؤذيها ويريبني ما رابها»، «إنَّ الله يغضب لغضب فاطمة» هذه قضيّة عميقة جدّاً.

نقاط في حركة الزهراء J :

وهناك عدّة نقاط يجدر أن نقف عندها:

النقطة الأولى: أنَّ الزهراء J قامت بحركة تغييرية:

ولم تكن الزهراء منعزلة بعد رسول الله 9 ، ولا قامت بعمل ثقافي محض، من قبيل جمع القرآن أو تدريس القرآن أو شرح القرآن، وإنَّما قامت بدور اجتماعي نُسمّيه دوراً تغييرياً، وهي قادت حركة تغييرية في الواقع السياسي بعد رسول الله 9 .

هناك نوعان من التحرّك:

الحركة الأولى: حركة تصحيحية.

الحركة الثانية: حركة تغييرية.

فمرّةً تكون المسألة مسألة اختلاف آراء سياسية، وهناك حاجة إلى تعديل وتوجيه وتصحيح، لكن الإمام علياً والزهراء H ما قاما بدور تصحيح أخطاء، فالقضيّة أعمق من أن تكون مجرد أخطاء،

(١) أمالي الصدوق: ١٨٧/ ح ١٩٦/ ٧؛ تاريخ دمشق ٤٢: ١٣٤؛ أُسد الغابة ٥: ٥٢٢؛ الإصابة ٨ : ١٠٢.

والقضيّة أيضاً لم تكن عبارة عن اجتهادات مختلفة، اجتهاد يقول: إنَّ الوضع الإسلامي بعد رسول الله 9 يجب أن يكون بهذا الشكل، والثاني يقول: لا، بل يجب أن يكون بهذا الشكل، وبالتالي كلّهم مجتهدون، و «مَنْ أصابَ فلَهُ أجران، وإذا أخطَأ فلَهُ أجر واحد»[1]، بل القضيّة كانت عبارة عن انحراف خطير يحتاج إلى حركة تغييرية، يعني أنَّ البناء يجب أن يتغير، وليس مجرد تصحيح أخطاء.

خطوات الزهراء J :

ما هي خطوات الزهراء J في هذا الدور؟

أوّلاً: خطابها في المسجد النبوي:

لقد كان خطاباً مفصَّلاً، كما في الروايات الثابتة أنَّه: «لمّا أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة J فدكاً، وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله 9 ، حتّى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثمّ أنَّت أنّة أجهش القوم لها بالبكاء، فارتج المجلس، ثمّ أمهلت هنيئة حتّى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها، فقالت J : «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها...»، إلى أن قالت: «أيها الناس اعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمّد 9 ، أقول عوداً

(١) هو ما اشتهر عند العامة، راجع: مسند أحمد ٤: ١٩٨؛ صحيح البخاري ٨ : ١٥٧.

وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً...»[١]، إلى آخر خطابها الذي كان يهدف تقويض الواقع الذي انتهت إليها حادثة السقيفة.

ثانياً: حركتها على الأنصار:

تحرّكت على الأنصار، والإمام علي C يحملها على دابة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أنَّ زوجك وابن عمّك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به! فيقول أمير المؤمنين C : «أفكنت أدع رسول الله 9 في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟»، فقالت فاطمة: «ما صنع أبو الحسن إلاَّ ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم»[٢].

إذن المسألة هي حركة تغييرية لكسب الأصوات وتغيير هذا الواقع القائم.

ثالثاً: الحركة الإصلاحية في الخطّ النسوي:

لمّا اجتمعت عندها نساء المهاجرين والأنصار، حوَّلت المسألة من مأتم ومجلس عزاء إلى حديث سياسي ناقشت فيه نساء المهاجرين والأنصار بقولها: «أصبحتُ والله عائفةً لدنياكُنَّ، قاليةً لرجالكُنَّ»[٣]، وهذه خطوة مهمّة في الدور التغييري، إنَّ المرأة التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها هي ساخطة على القوم، وهي تعني ما تقول.

رابعاً: استنهاض الإمام علي C :

فلقد جاءت إليه تستنهضه قائلةً: «يا بن أبي طالب، اشتملت شملةَ

(١) دلائل الإمامة: ١١٤؛ الاحتجاج ١: ١٣١.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ١٩.

(٣) أمالي الطوسي: ٣٧٤/ ح ٨٠٤/ ٥٥.

الجَنـين، وَقعَـدت حجـرة الظّنـين، نقضْـتَ قادِمَـة الأجـدل، فخانـكَ ريـشُ الأعزل»[1].

خامساً: دور المقاطعة:

جاءت بعد كل هذه الخطوات إلى دَور المقاطعة، إلى أن تُوفيَت J ، وهو ما نُسمّيه (الموقف السلبي)، وكان لهذا الموقف دور كبير، حتّى وَصَلَ الأمر إلى أنَّهم طلبوا الإذن للدخول عليها والاعتذار منها، فكانت ترفض، إلى أن لجأا إلى الإمام علي C في ذلك، فدخل علي على فاطمة J ، فقال: «يا بنت رسول الله، قد كان من هذين الرجلين ما قد رأيتِ، وقد ترددا مراراً كثيرة ورددتهما ولم تأذني لهما، وقد سألاني أن أستأذن لهما عليك»، فقالت: «والله لا آذن لهما ولا أكلمهما كلمة من رأسي حتّى ألقى أبي فأشكوهما إليه بما صنعاه وارتكباه منّي». قال علي C : «فإنّي ضمنت لهما ذلك»، قالت: «إن كنت قد ضمنت لهما شيئاً فالبيت بيتك، والنساء تتبع الرجال، لا أخالف عليك بشيء، فائذن لمن أحببت»، فخرج علي C فأذن لهما، فلمّا وقع بصرهما على فاطمة J سلَّما عليها، فلم ترد عليهما وحوَّلت وجهها عنهما، فتحوّلا واستقبلا وجهها حتّى فعلت ذلك مراراً، وقالت: «يا علي جاف الثوب»، وقالت لنسوة حولها: «حوِّلن وجهي»، فلمّا حوَّلن وجهها، حوَّلا إليها، فقال أبو بكر: يا بنت رسول الله، إنّما أتيناك ابتغاء مرضاتك، واجتناب سخطك، نسألك أن تغفري لنا وتصفحي عمّا كان منّا إليك، قالت: «لا أكلمكما من رأسي كلمة واحدة حتّى ألقى أبي وأشكوكما إليه، وأشكو صنعكما وفعالكما وما ارتكبتما منّي».

قالا: إنّا جئنا معتذرين مبتغين مرضاتك، فاغفري واصفحي عنّا ولا

---

(١) الاحتجاج ١: ١٤٥.

تؤاخذينا بما كان منّا. فالتفتت إلى علي C وقالت: «إنّي لا أكلّمهما من رأسي كلمة حتّى أسألهما عن شيء سمعاه من رسول الله 9 ، فإن صدقاني رأيت رأيي».

قالا: اللهم ذلك لها، وإنّا لا نقول إلاَّ حقاً، ولا نشهد إلاَّ صدقاً.

فقالت: «أنشدكما بالله، أتذكران أنَّ رسول الله 9 استخرجكما في جوف الليل بشيء كان حدث من أمر علي؟»، فقالا: اللهم نعم، فقالت: «أنشدكما بالله هل سمعتما النبي 9 يقول: فاطمة بضعة منّي وأنا منها، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذاها بعد موتي فكان كمن آذاها في حياتي، ومن آذاها في حياتي كان كمن آذاها بعد موتي؟»، قالا: اللهم نعم. فقالت: «الحمد لله». ثمّ قالت: «اللهم إنّي أُشهدك فاشهدوا يا من حضرني أنَّهما قد آذياني في حياتي وعند موتي، والله لا أكلمكما من رأسي كلمة حتّى ألقى ربي فأشكوكما إليه بما صنعتما به وبي وارتكبتما منّي»، فدعا أبو بكر بالويل والثبور...[1].

لماذا التأكيد على جوانب السلب:

هنا يأتي من يقول: أنتم شيعة أهل البيت G تؤكّدون على نقاط السلب والتأزّم في التاريخ، لكن عليكم أن تتركوا نقاط التأزّم ونقاط السلب وتتحدَّثوا عن النقاط البيضاء، نقاط المصالحة والمحبّة!

هذا سؤال سوف أؤجّل الجواب عليه، لكنَّنا يجب أن نميِّز ما بين الموقف المذهبي والموقف السياسي.

نحن نعرف أنَّ الإمام علياً C والأئمّة الأطهار G كانت

(١) بحار الأنوار ٤٣: ٢٠٣.

لـديهم مواقـف سياسـية يمكـن اعتبارهـا إيجابيـة علـى أرض الواقـع، علـى خـلاف مـا هـو الموقـف العقائـدي والمـذهبي. يمكـن أن نـذكر نمـاذج كثيـرة منهـا، فالإمـام علـي C مـثلاً أرسـل الحسـن والحسـين C يـدافعان عـن عثمـان بـن عفـان أيـام الثـورة عليـه. وهكـذا الإمـام علـي C كـان يقـدّم النصـيحة للخليفـة الأوّل والثـاني، بحيـث تسـتطيع أن تقـول إنَّهـا كانـت علاقـات تعـايش إيجابيّـة، لكـن هـذا شـيء، والرؤيـة العقائديـة شـيء أخـر، نحـن يمكـن أن نسـجِّل فـي القائمـة السياسـية مواقـف كثيـرة، لكـن دون أن تكون ذات مدلول مذهبي.

إنَّ مدرسـة أهـل البيـت G لا تريـد أن تسـلّط الضـوء علـى نقـاط التأزّم والتوتّر، وإنَّما تريد أن تكشف الرؤية العقائدية.

سادساً: الدور الحضاري في الحركة:

اسـتخدمت الزهـراء J فـي الحركـة التغييريـة أدواراً يمكـن أن نُسـمّيها بلغتنـا المعاصـرة: (أدواراً مدنيّـة حضـارية)، وربمـا تُسـمّى أيضـاً: (أسـاليب ديمقراطيـة)، وهـي عبـارة عـن حـوار ومقاطعـة سـلبية ومشـهد إعلامـي فنّـي، حتّـى أنَّهـا J اسـتخدمت المراجعـة القضـائية فـي قصـة فـدك، فأحضـرت شـهوداً هـم علـي C وأُمّ أيمـن والحسـن والحسـين، والخليفـة الأوّل يومئـذٍ أيَّـد هـؤلاء الشـهود وأعطاهـا حقّـاً بإرجـاع فـدك إليهـا، لكنَّهم بعد ذلك نقضوا ما كتبوا في قصة مفصّلة[١].

---

(١) في الرواية عن الإمام الصادق C قال: «لما بويع أبو بكر واستقام له الأمر على جميع المهاجرين والأنصار بعث إلى فدك من أخرج وكيل فاطمة J بنت رسول الله منها، فجاءت فاطمة الزهراء J إلى أبي بكر، ثمّ قالت: «لِمَ تمنعني ميراثي من أبي رسول الله 9 وأخرجت وكيلي من فدك وقد جعلها لي رسول الله 9 بأمر الله تعالى؟». \

كما أنَّ الزهراء J كانت تخرج خارج المدينة تبكي على أبيها رسول الله 9 ، وكانت تستظل إلى شجرة، فجاءوا إلى تلك الشجرة وقطعوها، وقبل هذا كانت تبكي في البيت فمنعوها من البكاء[1]، كان هذا في الحقيقة مشهداً إعلامياً واستخداماً جيّداً رغم ألَم المصاب.

أدوات الخط الآخر:

أمّا أدوات الاتجاه الآخر فهي ما نصطلح عليه اليوم بأساليب الإرهاب، من الضرب، إلى الإحراق، إلى التهديد بالقتل، إلى المنع من البكاء، إلى المحاصرة، وإلى الاعتقال، وحتّى المنع من الحريات الشخصية!!

هل هناك أحد ليس له حق البكاء على ميّتهِ؟ يومئذٍ مُنِعَت الزهراء من البكاء على أبيها، وكان ذريعتهم أن هذا البكاء يؤذينا!! فخرجت خارج المدينة، وكانت تستظل بشجرة، فجاؤوا إلى الشجرة وقطعوها، هذا هو أسلوب المنع من الحريات الشخصية، وحتّى وصلنا إلى مصادرة الممتلكات، (فدك) هي أرض كانت ملكاً للزهراء J على عهد رسول الله 9 ، فقد تمَّ مصادرتهِ، هذه هي أدوات الخط الآخر.

[فقال: هاتي على ذلك بشهود! فجاءت بأُمّ أيمن، فقالت له أُمّ أيمن: لا أشهد يا أبا بكر حتّى احتجّ عليك بما قال رسول الله 9 ، أنشدك بالله ألست تعلم أنَّ رسول الله 9 قال: «أُمّ أيمن امرأة من أهل الجنّة؟»، فقال: بلى. قالت: فأشهد أنَّ الله ﷻ أوحى إلى رسول الله 9 : [وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ]، فجعل فدكاً لها طعمة بأمر الله. فجاء علي C فشهد بمثل ذلك. فكتب لها كتاباً ودفعه إليها، فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: إنَّ فاطمة ادّعت في فدك، وشهدت لها أُمّ أيمن وعلي C ، فكتبته لها، فأخذ عمر الكتاب من فاطمة فتفل فيه ومزَّقه، فخرجت فاطمة J تبكي...» الخ. (راجع: الاحتجاج ١: ١٢٢).

(١) راجع: بحار الأنوار ٤٣: ١٧٧.

تعالوا ننتقل إلى الإمام الحسين C في مقارنة بين حركته وأدواته، وبين حركة الزهراء وأدواتها:

أوّلاً: قاد الإمام الحسين C حركة تغييرية، ولم تكن حركة تصحيح لأخطاء.

فالحسين C لم يقم بتقديم نصح إلى يزيد، كما كان يفعل أئمّة المذاهب الأخرى الذين قاموا بتقديم نصائح؛ لأنهم جميعاً لم يكونوا راضين، ولذا فقد كانوا يقدّمون النصيحة لهم ويتعايشون معهم، لكن أئمّتنا G كان دورهم دوراً تغييرياً وليس تصحيحاً.

لقد قام الإمام الحسين C بحركة تغييرية للواقع القائم قائلاً: «على الإسلام السلام إذ قد ابتُلِيَتِ الأمّةُ براع مثل يزيد»[1]، وهذه الكلمة كان أوّل من استخدمها في التاريخ هو الإمام الحسين C .

ثانياً: الإمام الحسين C حَسَمَ الموقف والرؤية تجاه حضور المرأة في الساحة السياسية، الإمام الحسين اصطحب معه النساء والعيال من مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة إلى العراق، ليس لتضخيم المصيبة فقط، وإنَّما ليكشف ما هي الرؤية الإسلاميّة تجاه حضور المرأة، وأنَّ المرأة يجب أن يكون لها دور في العملية التغييرية.

ثالثاً: الأدوات المدنية التي استخدمها الحسين C ، فهو لم يستخدم أدوات مسلحة أو إرهابية أو دموية، وإنَّما أدوات سلميَّة مدَنية حضارية. نعم، عندما أصبح في موقف مواجهة دافع عن نفسه، لكن أصل الأدوات التي استخدمها كانت عبارة عن حوار ورسائل وكُتب

(١) اللهوف: ١٨.

يبعثها، ومفاوضات حتّى مع الأعداء حينما كان يحدّثهم قائلاً: «انسبوني فانظروا من أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، فانظروا هل يَحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم، وابن وصيّه...»[١]، هذا حوار وجدل، وهذه أدوات مدنية، وكانوا بالمقابل يرمونه بالسهام.

زهير بن القين أحد أبرز أصحاب الحسين C كان عثمانياً، ولكن الإمام حاوره حواراً جميلاً في قصة طويلة، قال له: «تذكر يوم غزوتم بَلنجر ـ ويبدو أنَّها من مناطق بلاد فارس ـ وظفرتم بغنائم، وكان معكم سلمان الفارسي، فلمّا وجدكم فرحتم قالَ لكم: أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم؟ فقلتم: نعم، فقال: إذا أدركتم شباب آل محمّد فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم مما أصبتم اليوم من الغنائم»[٢]. فلمّا ذكَّره بذلك أمر زهير بأن تُنقل عياله ورحله إلى الحسين C ، لاحظوا هذا حوار وجدل، لا أغراء بالأموال، ولا تهديد بالسيف.

الإمام الحسين C كان له مشهد إعلامي رائع في كربلاء، فهو مرّةً يبرز إليهم وقد نَشَرَ القرآن على رأسه، وقد ركب فرس رسول الله 9 ، ثمّ يقول لهم: «ويحكم، أتطلبوني بقتيل لكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟!»[٣].

هذا مشهد إعلامي رائع، ومثله مشهد الطفل الرضيع حين عرضه على القوم ليسقوه[١].

---

(١) مقتل الحسين لأبي مخنف: ١١٧؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٢٢.

(٢) روضة الواعظين: ١٧٨.

(٣) الإرشاد ٢: ٩٨.

(١) روى المؤرِّخون: أنَّ أُمّ كلثوم خاطبت أخيها الحسين C فقالت: يا أخي إنَّ ولدك عبد الله ما ذاق الماء منذ ثلاثة أيام، فاطلب له من القوم شربة تسقيه. فأخذه ومضى به إلى القوم وقال: \

رابعـاً: مقاومتـه C كانـت مقاومـة سـلميّة، فالحسـين C طلـب الماء وتحرَّك للمشرعة، وهو لم يبدأ بقتال، بل كان يطلب الماء فيقاتلوه، وهكـذا عنـدما خـرج العبّـاس C ، قـال لـه الحسـين C : «أُطلـب لهـؤلاء الأطفال قليلاً من الماء»[1]، فهو لم يقل له: اذهب وقاتل.

أدوات المعسكر الآخر:

لكن تعالوا ننظر إلى دور المعسكر الآخر ما هي أدواته؟

لقـد كانـت أدواتـه دمويّـة، وبعيـدة عـن أصـول الحـرب والإنسـانيّة، فكان منها:

١ ـ قطع الماء وهو مصدر الحياة.

٢ ـ الإحـراق بالنـار، حـين أحرقـوا خيـام الحسـين C ، والموجـود في الخيام هم نساء وأطفال!

٣ ـ قتـل الأطفـال: كقتـل الطفـل الرضـيع، وآخـرين مـن أبنـاء (٩) سنين و(١١) سنة، يُقتلون وهم غير قادرين على القتال، فهذه هي أدوات الخـطّ الآخـر، قتـل الأطفـال، والتمثيـل بالأجسـاد[2]. وهكـذا سـبي النسـاء وترويع الأطفال.

[«يا قوم، لقد قتلتم أصحابي وبني عمّي وإخوتي وولدي، وقد بقي هذا الطفل، وهو ابن ستة أشهر، يشتكي من الظمأ، فاسقوه شربة من الماء»، فبينا هو يخاطبهم إذ أتاه سهم فوقع في نحر الطفل فقتله. (راجع: ينابيع المودة ٣: ٧٨).

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

(٢) لما قتل الحسين C ، نادى عمر بن سعد بأصحابه: من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة منهم فداسوا الحسين C بخيولهم حتّى رضّوا ظهره وصدره. (الإرشاد ٢: ١١٣؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٤٧).

اليوم كنت أقرأ رواية في قساوة التعامل مع الأطفال، والرواية يرويها الشيخ الصدوق في أماليه:

أنَّ طفلين لمسلم بن عقيل اُسرا في معسكر ابن زياد _ وربما كانت عملية اختطاف لهما _ على الأرجح: ولكنَّهما استطاعا الهرب في منتصف الليل، وبعد أن وجدهما شخص، أحضرَهما إلى النهر وأمر ابنه ليذبحهم، فلم يفعل الولد، فجاء بنفسه ليذبحهما على الفرات.

الرواية تقول: قالا له: لماذا تقتلنا؟ بل خذنا إلى ابن زياد ليصنع بنا ما يشاء.

قال: لا، بل أقتلكما.

قالا: بعنا في الأسواق.

قال: لا. فذبح الأوّل وكان الثاني ينظر إليه، ثمّ ذبح الثاني وألقى بجسدهما في الماء[1]. أنظروا هذه هي أدوات الخطّ الآخر.

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

* * *

(١) راجع نصّ الرواية بتفصيلها في: أمالي الصدوق: ١٤٣/ ح ١٤٥/ ٢.

(٧ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة السابعة:

بين الزهراء والحسين H

(دراسة مقارنة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قـال رسـول الله 9 : «فاطمـة سـيدة نسـاء العـالمين مـن الأوّلـين والآخرين»[1].

وقـال 9 : «فاطمـة بضـعة منّـي، وهـي قلبـي وروحـي التـي بـين جنبـي، فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[2].

مـا زال الحـديث عـن المقارنـة بـين الزهـراء J وبـين الحسـين C فـي الأهـداف والمنـاهج والنتـائج، وقـد ذكرنـا أن الزهـراء J قـادت حركة تغييرية.

بين الزهراء وعلي C :

بهذا الخصوص سنواجه مجموعة أسئلة:

هـل كـان بـين الزهـراء J وبـين الإمـام علـي C فـي خـطّ الحركـة التغييرية اختلاف في التوجّهات وأسلوب الحركة السياسية؟

وقد تُذكر لذلك أمثلة منها:

أنَّ الزهـراء J وجَّهـت عتبـاً للإمـام علـي C ، وقـد نقـول: إنَّـه كان عتباً شديداً، فما معنى هذا العتب؟

وربمـا يقـول الـبعض: إنَّ الإمـام عليـاً C لـم يـنهض للتغييـر، وإنَّمـا

---

(١) أمالي الصدوق: ١٧٥/ ح ١٧٨/ ٢.

(٢) كشف الغمة ٢: ٩٤.

الزهراء J هي التي بادرت في سير العملية، وعادت إلى الإمام تخاطبه معاتبةً، وتقول: «يا بن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين[١]، وقعدت حجرة الظنين[٢]، نقضت قادمة الأجدل[٣]، فخانك ريش الأعزل[٤]، هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبلغة[٥] ابنَي، لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألد في كلامي، حتّى حبستني قيلة[٦] نصرها، والمهاجرة وصلها، وغضّت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خَرجتُ كاظمة وَعُدتُ راغمة، ضرعت خدّك يوم أضعت حدّك، افترست الذئاب وافترشت التراب، ما كففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً، ولا خيار لي، ليتني متُّ قبلَ هنيئتي، وَدون ذِلتي، ويلاي في كل شارق، ويلاي في كل غارب، ماتَ العَمد، وَوَهن العضُد، شكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربي»[٧].

ها هي J تستنهض الإمام علياً C للدفاع عنها ومواجهة الخليفة!! هذا الأمر يسجّله الباحثون كعلامة استفهام، يقولون: هل كان بين الإمام علي وبين الزهراء H خلاف في تحديد الموقف السياسي؟

---

(١) أي: اختفيت عن الناس كالجنين في بطن أُمّه.

(٢) أي: قعدت عن طلب الحقّ، ونزلت منزلة الخائف المتهم.

(٣) قيل: لعلَّها J شبَّهت الصقر الذي نُقِضت قوادمه بمن لا سلاح له، والمعنى: تركت طلب الخلافة في أوّل الأمر قبل أن يتمكّنوا منها، وظننت أنَّ الناس لا يرون غيرك أهلاً للخلافة، ولا يقدِّمون عليك أحد، فكنت كمن يتوقَّع الطيران من صقر منقوض القوادم. وقيل: المراد: أنَّك نازلت الأبطال، وخضت الأهوال، ولم تبال بكثرة الرجال، حتّى نقضت شوكتهم، واليوم غُلِبت من هؤلاء الضعفاء والأراذل، وسلَّمت لهم الأمر ولا تنازعهم.

(٤) الأعزل: الذي لا سلاح معه.

(٥) البلغة: ما يتبلغ به من العيش، ويكتفي به.

(٦) قيلة: بنو قيلة: اسم أُمّ قديمة لقبيلتي الأنصار.

(٧) الاحتجاج ١: ١٤٦؛ مناقب آل أبي طالب ٢: ٥٠.

هل كان الإمام علي C لا يؤمن بالحركة، والزهراء تؤمن بها؟

وإذا كان الإمام C لا يؤمن بالحركة، فما معنى أن تقول له الزهراء J وهي المرأة المطيعة وعلي هو الإمام الشرعي للزهراء J: «يا بن أبي طالب! اشتملت شملة الجنين...»؟، يعني جلست كالجنين في بطن أُمّه، «... فلا دافع ولا مانع...»!، هذه لغة استنهاض! فما هو الموقف الصحيح؟ موقف الإمام علي C، أم موقف الزهراء J؟

البعض يطرح علامة استفهام، ويسأل: هل كان هناك اختلاف في الموقف السياسي؟

لقد قال لها: «لا ويلَ عليك، بل الويل لشانئك، ثمّ نهنهي عن وجدك يا بنة الصفوة، وبقية النبوة، فوالله ما ونيتُ عن ديني، ولا أخطأتُ مقدوري، فإن كنتِ تريدينَ البُلغة فكفيلُك مأمون، ورزقك مضمون، وما أُعد لك خير مما قُطِع عنك، فاحتسبي الله»، فقالت: «أحتسب»، وأمسكت[1].

فالإمام أعطاها شحنة حرارية أخرى باتجاه معاكس، أن احتسبي يا بنت رسول الله 9، هذا هو موقع الاحتساب وموقع الصبر، أنا أؤيّد ما تقولين يا بنت رسول الله، لكن احتسبي، فالموقف هو الصبر والاحتساب، فقالت: أحتسب، وأمسكت.

نعود إلى السؤال:

هل كانت الزهراء J تفهم الموقف بشكل، والإمام علي C بشكل آخر؟ أليسا هما معصومَين، وأصحاب رؤية واحدة، فكيف نفسِّر هذا التصوّر؟

---

(١) المصدر السابق.

اختلاف المواقع:

ملخّص الجواب بما يلي:

هناك اختلاف مواقف باختلاف المواقع، لكن الإستراتيجية هي نفس الإستراتيجية، والخطّ هو نفس الخطّ، إلاَّ أنَّ كلاً يعمل من موقعه؛ لأنَّ الموقع قد يفرض على الإنسان شكلاً آخر في المواقف، الرجل له موقف، المرأة لها موقف، الصغير له موقف، والكبير له موقف، الحدث التاريخي له موقف بحسب استحقاقه، فهذا ما نُسمّيه (اختلاف موقف باختلاف المواقع)، وليس اختلاف إستراتيجية.

الزهراء J هي مالكة فدك، والإمام علي C يشخّص لها الموقف، أنَّه أنتِ مِن حقّكِ أن تطالبي، لكن تشخيصي للموقف هو أنَّ المرحلة تحتاج إلى تأجيل، كِلا الموقفين صحيح حسب اختلاف المواقع، رسول الله 9 يكون له موقف صحيح، والإمام علي C له موقف صحيح آخر، لماذا؟ لأنَّ رسول الله 9 له موقع والإمام علي C له موقع آخر، وهكذا نحن لا نفترض دائماً أنَّ القضايا هي استنساخ.

مثلاً الإمام زين العابدين C في مواجهة الهجمة الأخلاقية كان لا يخوض مواجهة بغير الدعاء، والإمام الباقر والإمام الصادق H في مواجهة الهجمة الثقافية كان لهما دور الدخول في المواجهة الثقافية. هذا الاختلاف في المواقف ينشأ من اختلاف المواقع، وإلاَّ فالأهداف واحدة، والإستراتيجية أيضاً واحدة، بدليل أنَّ القرآن الكريم يحدّثنا عن اثنين من الأنبياء وهما إخوة وفي زمن واحد، لكن القرآن الكريم يصوّر القضية كأنَّ هناك اختلاف مواقف، وبالفعل هو اختلاف مواقف، لكن حسب اختلاف المواقع، وهذا لا يتنافى مع العصمة، ولا يتنافى مع وحدة القيادة.

موسى وهارون H نبيان معصومان في زمان واحد، موسى لما ذهب إلى ربه لتلقي التشريعات الإلهية، [وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ][(١)]، حَدَثَ شقاق وخلاف في بني إسرائيل فيمن هو النائب عن موسى؟ هارون حاول أن يهدّئ الوضع بشكل وآخر، حاول أن يؤجّل المعركة الداخلية، لم يستطع أن ينهيها، لكنّه أجَّلها، فلمّا جاء موسى عَتَبَ عليه: [قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ][(٢)]، موسى أصبح يعاتب هارون، لماذا تركت هؤلاء حين [قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ][(٣)]؟ كان موقف هارون هو امتصاص الفتنة وتأجيل المعركة، فلمّا جاء موسى [قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي][(٤)]، هارون قدَّم الرؤيا الأخرى [قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي][(٥)]، لقد كان اجتهادي في هذا المعترك السياسي أَن أمتص الفتنة واحتوي الحالة إلى أن تأتي، ولا أدخل معهم في المعركة؛ لأنَّ نتائج المعركة قد تكون أكثر سلبية، وحينما ترجع سوف تسجل عليَّ عتباً آخر، فتقول: لماذا فرَّقتَ بين بني إسرائيل، هذا نُسمّيه اختلاف مواقف باختلاف المواقع، موقع هارون أقل من موقع موسى، موقع هارون فرض عليه أن يستخدم (تكتيك) مع بني إسرائيل.

(١) الأعراف: ١٤٢.
(٢) الأعراف: ١٥٠.
(٣) الآية السابقة.
(٤) طه: ٩٢ و٩٣.
(٥) طه: ٩٤.

هكـذا الحـال مـا بـين الزهـراء وعلـي C ، وهـذا العتـب الـذي سـجّلته الزهـراء J لـم يكـن اختلافـاً إسـتراتيجياً فـي الرؤيـة؛ لأنَّ الرؤيـة هـي نفـس الرؤية، الرؤية التغييرية، لا بدَّ من تصحيح ذلك الواقع.

الزهــراء J نهضــت وخطبــت بالمســجد خطابــاً عظيمــاً، ولكــن الإمام علي C لم تسمح له ظروفه بالقيام بهذا الدور، لماذا؟

ذلــك لأنَّ موقــع الزهــراء J كبنــت لرســول الله 9 أبعــد عــن الشـبهة، وأبعـد عـن الخطـر مـن الإمـام علـي C إذا هـو تصـدّى بالمباشـرة، ولـذا فقـد تـرك الزهـراء J تتصـدّى، لكـن هـو معهـا فـي الموقـف ولـيس ضـدّها، فهـذا (تكتيـك) بالمصـطلح المعاصـر، يعنـي تغييـر المواقـف حسـب المواقع، ولا يوجد اختلاف سياسي بين الزهراء J وبين علي C .

سـؤال: بعـض الروايـات تتحـدَّث عـن اخـتلاف عـائلي فـي داخـل البيـت بـين الزهـراء وعلـي C ، فهـل هـذا صـحيح؟ بعـض الروايـات تقـول أنَّ مشـكلة حـدثت بينهمـا وذهبـوا إلـى رسـول الله 9 فصـالح بينهمـا وحـلَّ المشكلة، هكذا تقول الرواية:

عـن عبـد الله بـن الزبيـر فـي خبـر عـن معاويـة بـن أبـي سـفيان قـال: دخـل الحسـن بـن علـي علـى جـدّه 9 وهـو يتعثَّـر بذيلـه، فأسـرَّ إلـى النبـي سـراً، فرأيتـه وقـد تغيَّـر لونـه، ثـمّ قـام النبـي حتّـى أتـى فاطمـة، فأخـذ بيـدها فهزَّهـا إليـه هـزّاً قويـاً، ثـمّ قـال: «يـا فاطمـة، إيّـاك وغضـب علـي، فـإنَّ الله يغضـب لغضـبه، ويرضـى لرضـاه». ثـمّ جـاء علـي فأخـذ النبـي بيـده ثـمّ هزّهـا إليهـا هـزّاً خفيفـاً، قـال: «يـا أبـا الحسـن، إيّـاك وغضـب فاطمـة، فـإنَّ الملائكـة تغضـب لغضــبها، وترضــى لرضــاها». فقلــت: يــا رســول الله، مضــيت مــذعوراً، وقــد

رجعت مسروراً، فقال: «يا معاوية، كيف لا أسر وقد أصلحت بين اثنين هما أكرم الخلق»[١].

هذه رواية موجودة في مصادرنا التاريخية، هل نقبلها أم لا؟

هذه الروايات يقول عنها بعض علماءنا أنَّها مفتعلة، وغير معتمدة[٢].

وإنَّ أهم ما يمكن إيراده على تلك الرواية التي قرأتها عليكم أنَّها رواية معاوية بن أبي سفيان، ومثلها رواها أبو هريرة المشهود عليه بالكذب، فهذه الروايات لا يمكن اعتمادها. كما أنَّ السيرة التي عرفناها عن الإمام علي C والزهراء J لا تسمح ولا تساعد على قبول فرضية أنَّهما يتشاجران، حتّى يكون رسول الله 9 هو المصلح بينهما. هذه سيدة نساء العالمين، وهذا أمير المؤمنين، وهو باب مدينة العلم، فكيف يعجزان عن تسوية وضعهما الداخلي؟

هذه رواية غير مقبولة وفق مفهومنا عن الإمام علي C وعن الزهراء J ، كما أنَّ هذه الروايات ساقطة من ناحية سندية، فرواتها معروفون بالكذب.

هناك روايات كثيرة في مصادر التاريخ لا يمكن قبولها.

علي C يقول عن الزهراء J : «فوَالله ما أغضبتها، ولا أكرهتها على أمر حتّى قَبضها الله U، ولا أغضبتني ولا عَصَت لي أمراً، ولقد كنت أنظر إليها فتنكشف عنّي الهموم والأحزان»[٣]، هذه هي الزهراء في نظر علي C .

---

(١) راجع: مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٤؛ نقلاً عن (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي.

(٢) قال ابن بابويه: هذا غير معتمد، لأنَّهما منزّهان عن أن يحتاجا أن يصلح بينهما رسول الله 9 . (المصدر السابق).

(٣) كشف الغمة ١: ٣٧٣.

كما أنَّ الزهراء تقول عن علي C : «يا بن عمّ، ما عَهدتني كاذبة، ولا خائنة، ولا خالفتُك مُنذُ عاشرتني»، فيقول الإمام علي C في جواب الزهراء J : «معاذ الله، أنتِ أعلم وأبرُّ وأتقى وأكرمُ وأشدُّ خوفاً لله من أن أُوَبِّخَك بمخالفتي»(١).

هذا هو تقييم الطرفين للآخر، إذن فالحديث عن وجود خلاف أُسَري كما في بعض المصادر التاريخية هو حديث غير مقبول.

كيف نقبل انحراف الأكثرية؟

سؤال: كيف نقبل تاريخياً، وكيف نقبل دينياً افتراض أنَّ الأكثرية انحرفت عن علي C ، وانحرفت عن الزهراء J ، وخالفت بذلك نصوص النبي ووصاياه؟ فهل من الممكن القول بأن مجموعة قليلة فقط هي التي عرفت الحقيقة، بينما الباقون كلّهم قد انحرفوا؟

ولعلَّ غرابة هذه الفرضية هي التي جعلت أبناء السُنّة والجماعة يصحّحون مواقف الصحابة باعتبارهم يشكّلون الأكثرية.

لننقل السؤال إلى أنفسنا:

كيف نقبل مقولة انحراف الأكثرية!؟

وإذا كانت الأكثرية قد انحرفت والقلَّة هم الذين اهتدوا أليس، ذلك فشل في تجربة النبي 9 ؟

قالوا: نرجع بجواب هذا السؤال للتاريخ، وإلى نصوص النبي 9 ، ثمّ ندرس الواقع من وجهة نظر النبي 9 فيما هو الثابت تاريخياً، وقبل أن نضع أنفسنا في موضع القاضي:

---

(١) روضة الواعظين: ١٥١؛ عنه: بحار الأنوار ٤٣: ١٩١.

رسولُ الله 9 كيف قيَّم الموقف وفقاً للمصادر المُجمع عليها؟

رســول الله 9 ـ وباتفــاق كــل المســلمين ـ كــان يقــيّم الموقــف برؤيــة ســلبية ولــيس برؤيــة إيجابيــة، فقــد كــان يقــول فــي الحــديث المتّفــق عليـه: «سـتفترق أمّتـي علـى اثنـين وسـبعين فرقـة كلّهـا فـي النـار إلاّ واحـدة»[١]، هــذه ليســت رؤيتنــا، بــل هــي رؤيــة رســول الله 9 ، أنَّــه ســيحدث بعــده انحـراف فـي الأكثريـة السـاحقة، ذلـك معنـى: «كلّهـا فـي النـار إلاّ واحـدة»، فإن كان هناك ثَمة اعتراض واستغراب فهو رؤية النبي 9 .

رســول الله 9 ـ وبحســب الروايــة المتّفــق عليهــا ـ كــان يقــول: «لتتـبعنَّ سُـنَنَ مَـن قـبلكم، ذراعـاً بـذراع، وشـبراً بشـبر، وباعـاً ببـاع، حتّـى لَـو دخلوا جُحر ضَبٍّ لَدَخلتموه»[٢].

ومعناه أنَّكم ستكونون كالأمم التي سبقتكم من بني إسرائيل حين اختلفوا وانحرفوا، فأنتم ستُبتلون بذلك الانحراف، والقرآن الكريم يقول: [لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ][٣]، فهل نعترض على عيسى وموسى H حين انحرفت أمّتهما ولُعِنت بنصّ القرآن الكريم؟!

إذن هــذه هــي رؤيــة رســول الله 9 فــي مســتقبل أمّتــه، لكــن هنــاك جــادّة صــواب، وقــارب نجــاة، وهنــاك الــوادي الــذي يســلكه علــي C ، والذي أمر رسول الله 9 أصحابه أن يسلكوه.

---

(١) رواه الخاصـة والعامـة بألفـاظ متفاوتـة، ومعناهـا واحـد، راجـع: الكـافي ٨ : ٢٢٤/ ح ٢٨٣؛ كمـال الدين: ٦٦٢؛ مسند أحمد ٢: ٣٣٢؛ سنن ابن ماجة ٢: ١٣٢١/ باب افتراق الأمم؛ سنن أبي داود ٢: ٣٩٠/ ح ٤٥٩٦؛ سنن الترمذي ٤: ١٣٤/ ح ٢٧٧٨؛ مستدرك الحاكم ١: ٦.

(٢) أمالي الطوسي: ٢٦٦/ ح ٤٩٢/ ٣٠؛ مسند أحمد ٢: ٣٢٧؛ مستدرك الحاكم ١: ٣٧.

(٣) المائدة: ٧٨.

تعلمون تاريخياً أنَّ عيسى بن مريم C عاش مرحلة تبليغية، هي عبارة عن ثلاث سنوات فقط، ثمّ صُلب، أو قُتل، أو بحسب النظرة القرآنية أنَّه: [ما قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ](١)، وبعد ثلاثمائة عام تأسّست الدولة المسيحية، مما يعني أنَّ عيسى وأتباعه إلى عدّة أجيال لم يشهدوا قيام الدولة العيسوية، وإنَّما قامت بعد ثلاثة قرون، كما هو في قصة أصحاب الكهف، حين خرجوا من الكهف شاهدوا دولة تؤمن بالمسيح، بينما كان الحكم كافراً حينما لجئوا إلى الكهف وبقوا فيه [ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً](٢).

هذه هي قصة عيسى وتمزُّق أصحابه من بعده، ورسول الله 9 يقول إنَّه ستحدث اختلافات وافتراقات في هذه الأمّة كما حدثت في الأمم السابقة، هذه هي رؤية النبي 9 لمستقبل أمّته، فالمسألة إذن هي حقيقة تاريخية أنبأ بها النبي 9 ، فلا داعي للتخلّص منها.

هل ضاعت جهود النبي 9 ؟

لكن سوف تسأل: أين جهود النبي 9 ؟ هل ضاعت؟ إنَّ انحراف الأمّة بعد رسول الله 9 يعني أنَّ جهوده العظيمة قد أخفقت!!

الجواب: لم تضع الجهود، بل المسيرة مستمرّة، والأمّة موجودة، والتجربة قائمة، ونحن الآن بعد أربعة عشر قرناً نشهد أنَّ التجربة الإسلاميّة لم تنهار، والأمّة الإسلاميّة ما تزال حيّة، رغم أنَّ سبيل الحقّ الكامل لا يعرفه إلاَّ أقلّية، لكن ذلك لا يعني أنَّ الأكثرية قد تجرَّدوا عن

---

(١) النساء: ١٥٧ و١٥٨.

(٢) الكهف: ٢٥.

ثوب الإسلام، بل بقي الإسلام موجوداً في الشارع الإسلامي بمستويات مختلفة؛ لأنَّ الإيمان على عشر مراتب[١]، لقد بقي الإسلام حيّاً إلى اليوم، وهو يحرِّك الشارع الجماهيري الكبير و يؤثِّر فيه، لقد كانت تجربة رسول الله 9 تجربة ناجحة، وليست تجربة فاشلة.

على كل حال، فهذه القضيّة وهي قضيّة امتحان الأمّة واختلافها بعد رسول الله 9 هي إرادة الله وحكمته، ولا اعتراض على بلائه وقضائه.

نوح C عمل في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، فماذا كانت النتيجة؟ فهل نعترض على نوح؟ هذه هي سُنَّةُ الله تبارك وتعالى، وفي تجربة لوط يقول القرآن الكريم: [فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ][٢]، ولا اعتراض إذا لم يتحقّق شيء من النجاح في تلك التجربة؛ لأنَّ هناك مقاسات إلهية هي غير المقاسات البشرية.

نعود إلى السؤال: هل حقّق رسول الله 9 نجاحاً في تجربته، أم لم يُحقّق نجاحاً؟

الصحيح أنَّ رسول الله 9 حقّق نجاحاً على مستوى التجربة، لكن الناس على مستويات في فهم التجربة، مستوى بدرجة عالية وهم شيعة أهل البيت G ، ثمّ أقل، ثمّ أقل، وهكذا. وهذا نجاحٌ كبير للتجربة المحمديّة قياساً لباقي

(١) في الرواية عن الإمام الصادق C قال: «إنَّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولنَّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء حتّى ينتهي إلى العاشر، فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق، ولا تحملنَّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنَّ من كسر مؤمناً فعليه جبره» (الكافي ٢: ٤٤/باب درجات الإيمان/ح ٢).

(٢) الذاريات: ٣٦.

الأنبياء، وحتّى أولئك الأنبياء الذين حكموا، مثل سليمان وداود H ، فإنَّه بمجرد أن ماتوا انتهت تجربتهم، رغم أنَّ الله تعالى سخَّر لهم الجبال والرياح والطير والجن والشياطين، لكن حكومتهم قد انتهت، أمّا تجربة نبينا 9 فهي تجربة ناضجة إلى اليوم.

أهداف الحركة الحسينيّة:

ننتقل إلى الإمام الحسين C .

الإمام الحسين C على مستوى الأهداف كانت أهدافه تغييرية، كما كانت حركة الزهراء J تغييرية، والزهراء لم يكن هدفها المطالبة بفدك، وإنَّما كان تغيير الواقع القائم حين قالت: «ويحهم! أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة»[1]، المسألة هي مسألة حكم وليس مسألة فدك وقطعة أرض فقط. إذن كان الهدف هدفاً تغييرياً، وهكذا كان هدف الحسين C .

الإمام الحسين كان هدفه تغيير الحكم الأموي، وإسقاط حكومة يزيد، حين قال C : «مثلي لا يبايع مثله»[2]، وقال: «على الإسلام السلام إذ قد ابتُلِيَتِ الأمّةُ براع مثل يزيد»[3].

كما أنَّ المناهج والأدوات التي استخدمها الحسين C هي نفس الأدوات والمناهج التي استخدمتها الزهراء J ، وقد أشرنا إليها، الخطاب الإعلامي، الحوار، التحرّك لكسب الموقف، نجد أنَّ الإمام الحسين C

(١) معاني الأخبار: ٣٥٥.

(٢) اللهوف: ١٧.

(٣) اللهوف: ١٨.

استخدم ذات المناهج، الإمام الحسين C لم يستخدم حرب العصابات، ولا دخل في حرب مسلّحة، وإنَّما فُرض عليه أن يدافع عن نفسه، وأن يطلب الماء، وإلاَّ فإنَّ الإمام الحسين ما كان مجهزاً لمعركة عسكرية، وإلاَّ لكان عليه أن يستخدم طريقاً آخراً ومناهج أخرى.

لقد قال C : «إنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي 9 »[١].

نتائج حركة الزهراء J :

أمّا النتائج فهي على مستويين: المديات القصيرة، والمديات البعيدة.

النتائج على المديات البعيدة لحركة الزهراء J أنَّها استطاعت أن تغيِّر الواقع، وبعد خمس وعشرين عاماً استطاع حكم الإمام علي C أن ينجح في قيادة التجربة واستلام الحكم، لقد استطاعت الزهراء J وإلى اليوم أن ترسم الجادة الصحيحة لمسيرة الإسلام، وهي التي ينتمي إليها أتباع أهل البيت G ، لا يمكن استئصال هذا الواقع، نحن لسنا حضارة بعمر مائة عام، ولسنا تجربة سياسية حكمت عشر سنوات أو ثلاثين عاماً وانتهت، الأمويون تجربتهم انتهت، العبّاسيون تجربتهم انتهت، الشيوعية في الاتحاد السوفيتي انتهت، حزب البعث الذي حكم العراق خمس وثلاثين عاماً انتهى، لكن تجربة أهل البيت G وشيعتهم لم تنته، فهم أمّة ذات جذر تاريخي لا تنتهي، رغم أنَّها لم تحكم، وليس لديها إمكانات مادية كبيرة، وهذا شيء عجيب.

في الحقيقة نستطيع أن نقول: إنَّ الزهراء J نجحت على مستوى المديات البعيدة، وكذلك الحسين C ، فقد استطاع أن يُسقط الحكم الأموي

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

عبر تداعيات الثورة الحسينية، فقد أصبحت الثورات بعد الحسين C متتالية، لقد كانت أوّل ثورة بعد الحسين C هي ثورة سليمان بن صِرَد الخزاعي، وبعدها كانت ثورة المختار، وبعدها كانت حركة عبد الله بن الزبير ومصعب بن زبير، ثمّ ثورة زيد بن علي C ، وهكذا توالت الثورات إلى أن سقط الحكم الأموي، وليس المهمّ أن يسقط الحكم الأموي أو لا يسقط بمقدار أنَّ المهم هو أنَّ الشارع بقيَ محافظاً على القيم الإسلاميّة الأصيلة بدرجة كبيرة، والعالم اليوم يهتزّ لحضارتنا ولأمّتنا الحيّة المتقدّمة، من هنا، من الشرق، من العراق، من هذه المنطقة منطقة أتباع أهل البيت G .

أمّا على مستوى المديات القصيرة، فإنَّ الزهراء J لم تكسب من حركتها إلاَّ الألم والظُّلامات، وهكذا كان الحسين C على مستوى المديات القصيرة، الزهراء تحمّلت ضرباً، وكسراً لضلعها، وإسقاطاً لجنينها، ومنعاً من البكاء، ومصادرة أموال، حتّى ماتت وهي شهيدة، «السلام عليك أيتها الصديقة الشهيدة»[1]، هذه هي النتيجة على مستوى المديات القصيرة، حتّى دُفنت ليلاً ولم يحضر تشييعها إلاَّ نفر يسير.

نتائج حركة الحسين C :

فلنرى الحسين C ما هي نتائج حركته على مستوى المديات القصيرة؟

هناك تطابق وتشابه ضمن مجموعة نقاط، والشعراء ينظمون هذا التشابه في أدبياتهم، الظُّلامات التي شهدتها كربلاء هي صورة مكبَّرة ومضخَّمة للنتائج والظُّلامات التي شهدتها الزهراء J ، ولهذا الشاعر يقول:

وبكسر ذاك الضلع رُضَّت أضلعٌ فـي طيّهـا سـر الإلـهِ مصـون

---

(١) إقبال الأعمال ٣: ١٦٤.

الزهـراء J شـهدت ظُلامـة التهديـد بـإحراق الـدار[١]، وفـي كـربلاء كان إحراق الخيام.

الزهـراء J شـهدت الضَـرب، حيـث ضـربوا عينهـا وكتفهـا، ومشـهد الضرب كان أيضاً في عرصات كربلاء كما حدث للسبايا.

مشهد كسر ضلع الزهراء J ، وهنا كسر أضلع الحسين C ، حينما نادى عمر بن سعد بأصحابه: من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة منهم فداسوا الحسين C بخيولهم حتّى رضّوا ظهره وصدره[٢].

لاحظوا، هذه نفس تلك الظلامات، لكن بشكل مضاعف.

هنـاك قـادوا علياً أسـيراً، وفـي كـربلاء لـدينا أسـير آخـر هـو علـي بـن الحسـين C ، وأسـر النسـاء، كـان ذاك المشـهد فرديـاً، لكـن المشـهد فـي كربلاء صار مشهداً جمعياً.

مشـهد الخطـاب، هـو الآخـر مـن مشـاهد التشـابه، لقـد كنـت أقـارن بـين خطابين، أجد التطابق بينهما، هناك الزهراء J تخطب وتقول: «أيها الناس اعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمّد 9 ...»[٣]، الإمام الحسين في كربلاء كان يقول: «انسبوني فانظروا من أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، فانظروا هل يَحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم، وابن وصيّه...»[٤]، هناك وهنا هذا المشهد يتكرّر، الشكوى إلى رسول الله مشهد تكرّر، الزهراء J ذهبت إلى قبر رسول الله 9 شاكيةً قائلةً:

(١) راجع: السقيفة وفدك للجوهري: ٥٣؛ شرح نهج البلاغة ٢: ٥٦.

(٢) الإرشاد ٢: ١١٣؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٤٧.

(٣) دلائل الإمامة: ١١٤؛ الاحتجاج ١: ١٣١.

(٤) مقتل الحسين لأبي مخنف: ١١٧؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٢٢.

صــبَّت علــيَّ مصــائبٌ لــو أنَّهــا صُـبَّت على الأيـام صـرن لياليـا[١]

الحسـين C أيضـاً شـكى إلـى رسـول الله، ونسـاء الحسـين زينـب وأخوات زينب أيضاً شكون إلى رسول الله 9 .

الإمـام الحسـين C منـذُ سـاعات حركتـه الأولـى بـدأ بالشـكوى إلـى رسـول الله 9 فـي المدينـة المنـوّرة، حينمـا جـاء إلـى قبـر النبـي 9 يودّعـه، وجعـل يبكـي عنـده، فـأغفى علـى القبـر الشـريف، فـرأى فـي المنـام رسـول الله 9 ، فقـال: «يـا بنـي، إنَّـك قـادم علـى أبيـك وأُمّـك وأخيـك، وهـم مشتاقون إليك، وإنَّ لك درجات في الجنّة لا تنالها إلاَّ بالشهادة»[٢].

حديثنا في هذه الليلة عن قمر بني هاشم أبو الفضل العبّاس C ، كان عمره في كربلاء ست وثلاثين سنة، يعني هو عنفوان الشباب والرجولة، وكان من جملة ألقابه (السَّقاء)، لأنَّه نجح في عملية جَلب الماء في اليوم السابع، فالماء حينما قُطع عن الإمام الحسين C في اليوم السابع من محرم الحرام جهَّز الإمام قوةً من ثلاثين فارساً بقيادة العبّاس C ، ووَصلوا إلى المشرعة وأحضروا الماء للحسين وأهل بيته وأصحابه[٣]. وكفاهم ذلك الماء ليوم أو يومين وإلى اليوم التاسع، لقد ملئوا القرب وكانوا ثلاثين فارس، حتّى وصلنا إلى اليوم العاشر من محرم الحرام، نفذ الماء، وبدأ الأنين والبكاء يعلو من الخيام: «يا عمّ العطش».

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(١) روضة الواعظين: ٧٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣١٣ و٣٢٨.

(٣) راجع: بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٨.

(٨ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة الثامنة:

مقارنة بين مواقف الإمام الحسن C

ومواقف الإمام الحسين C

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله 9 : «من سرَّه أن يَنظُر إلى سيد شباب أهل الجنّة فلينظر إلى الحَسن C »[1].

وقال 9 : «إنَّ ابني هذا سَيِّد ولَعلَّ اللهَ ﷻ يُصلحُ بِهِ بَينَ فِئتين عظيمتين من المسلمين»[2].

وقال 9 : «من آذى هذا ـ يعني الحسن C ـ فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[3].

الحديث هذه الليلة استمرار لأحاديثنا السابقة عن الحركة الإصلاحية لأهل البيت G ، وعلى رأسهم أصحاب الكساء (رسول الله 9 ، وفاطمة، وعلي، والحسن، ثمّ الحسين G) في دراسة مقارنة.

ونحن فيما سبق أنهينا الحديث عن حركة الإمام علي C ، والزهراء J .

الحديث هذه الليلة عن حركة الإمام الحسن C ، وما هي نقاط التشابه بينها وبين حركة الإمام الحسين C ، رغم أنَّ البارز في حركة الإمام الحسن C هو الصلح، والبارز في حركة الإمام الحسين C هو الثورة، ولكن نحن بحاجة إلى أن نعقد مقارنة بين حركتين على

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٥؛ البداية والنهاية ٨ : ٣٩؛ كنز العمال ١٢: ١١٦/ ح ٣٤٢٦٩.

(٢) عمدة الطالب: ٦٥؛ مسند أحمد ٥: ٤٩؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٧٥.

(٣) المعجم الكبير ٣: ٤٢/ ح ٢٦٢٧؛ كنز العمال ١٢: ١٢٥/ ح ٣٤٣١٠.

مستوى الأحداث، وعلى مستوى المناهج، وعلى مستوى النتائج.

بالأصل إنَّ رسول الله 9 أكَّدَ على رمزية الحسن والحسين H معاً، وأنَّ الحسن والحسين يُمثّلان رمزاً مقدّساً للمسلمين، وهنا تأتي مقولة رسول الله 9 : «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[١]، وهي تأكيد على أنَّ رمزية الحسن والحسين ليست مربوطة بشكل الحركة، فالإمام الحسن C إمام، والإمام الحسين C إمام، تحرَّك بهذا الشكل أو تحرَّك بذاك الشكل، هذه القضيّة كانت التأكيدات من رسول الله 9 واضحة عليها، لئلاّ يقول قائل يوماً ما: إنَّه لماذا اختلفت حركة الأئمّة ومناهجهم، هذا كان بذاك الشكل، وذاك بهذا الشكل؟

رسول الله 9 يؤكّد أنَّهم بكل الأحوال رموز مقدّسة.

كيف ننظر للأئمّة الأطهار G :

هناك رؤيتان للأئمّة G :

الرؤية الأولى: الرؤية المقدّسة المطلقة:

وهي الرؤية التي يتبنّاها شيعة أهل البيت G ، فنحن نقبل الإمام علي C في كلّ أحواله، ونقبل الزهراء J في كلّ أحوالها، والحسن C في كلّ أحواله، والحسين C في كلّ أحواله كإمام معصوم مقدّس عندنا، ونفسّر كلّ المواقف على أساس أنَّها مواقف نابعة من موقع ميراث النبوة، وبيت العصمة والطهارة G ، لا نقبل تشكيكاً وجدلاً، وقد نقدِّم لتلك المواقف تحليلاً، لكنَّها تبقى هي المقياس وليس نحن، هذه الرؤية نُسميها الرؤية المقدّسة للأئمّة الأطهار G ، وهذه هي عقيدة شيعة أهل البيت، وأنَّ كلّ فعل يصدر من

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٣؛ إعلام الورى ١: ٤٠٧.

المعصوم فهو فعل صحيح ومقدّس.

الرؤية الثانية: الرؤية الاجتهادية:

التي لا تنظر إلى أهل البيت كمواقع معصومة مقدّسة، وإنَّما تحاول تلك الرؤية أن تُفسِّر مواقف الأئمّة G بتحليلات تقبلها مرّة، ولا تقبلها مرّة أخرى، كما ينظرون إلى أيّ رجل بالتاريخ، هذه رؤية اجتهادية، رؤية لا تحمل عقيدة العصمة والقداسة لأهل البيت G ، ولهذا نجد أنَّ بعض الكتّاب يخطّئون الأئمّة G ، بينما شيعة أهل البيت يعتقدون بعصمتهم.

إنَّ كتابات (طه حسين) و(عبّاس محمود العقاد) وأمثال هؤلاء تؤكّد هذه الرؤية الثانية، فهم ينظرون إلى الأئمّة مثل أيّ بشر يخطأ ويصيب.

وعلى كل الأحوال رؤيتنا نُسمّيها الرؤية المقدّسة لأهل البيت G ، كل ما يصدر منهم قد نخضعه للتحليل، لكنَّه في الأصل عندنا هو الصحيح، وذلك اعتماداً على قول رسول الله 9 : «إمامان قاما أو قعدا»، والذي يعني أنَّ الإمام هو الذي يشخص التحليل الصحيح والموقف الصحيح، ومثل ذلك قول رسول الله 9 : «يا عمّار، إن سلك الناس كلهم وادياً، وسلك عليٌّ وادياً، فاسلك وادي علي، وخلّ عن الناس، إنَّ علياً لا يردّك عن هدىً، ولا يدلّك على ردى»[1].

مواقف أهل البيت G هل هي مزاجية؟

لدينا في البحث عن الإمام الحسن C مجموعة نقاط:

النقطة الأولى: هل كانت مواقف أهل البيت G متأثّرة بالتركيبة النفسية لكلّ واحد منهم؟ هناك من يقول: إنَّ حمزة سيد الشهداء مثلاً

---

(١) بحار الأنوار ٣٣: ١٧؛ مناقب الخوارزمي: ١٩٤.

كـان لديـه شخصـية قويـة وعصـبية جعلتـه ينتصـر لرسـول الله 9 ، وأبـو الفضـل العبّـاس شخصيته الغيـورة هـي التـي جعلـت منـه بطـل كـربلاء، بينمـا كـان الحسـن C يتمتَّـع بشخصـية أليفـة وديعـة هـي التـي جعلتـه يـؤثِر الصلح، بينمـا الحسين C كـان يتمتَّـع بشخصية قتاليـة، والإمـام البـاقر كـان يتمتَّـع بشخصـية علميـة، بينمـا الإمـام زيـن العابـدين كـان يتمتَّـع بشخصـية حزينـة جعلتـه يـؤثِر الـدعاء والبكـاء. فـي ضـوء هـذه الرؤيـة فـإنَّ مواقـف أهـل البيـت G كانـت تخضـع لتـركيبهم النفسـي، ولـيس عبـر اسـتحقاقات الواقع الخارجي!

هذه الرؤية تقول: إنَّ الإمام الحسن C وبحسب تركيبته النفسية قد جُهِّز بأصل الخِلقة ليكون إصلاحياً يجمع بين فئتين، بينما الإمام الحسين C كانت تركيبته المزاجيّة حادّة تميل إلى المواجهة!، في زماننا يصطلحون في المجال السياسي على نمط من الناس بأنَّهم صقور، ونمط آخر أنَّهم حمائم.

هـذا التفكيـر يقـول أيضـاً: إنَّ نمـط شخصـيّة الإمـام الحسـن C هـو مـن نمـط الحمـائم، ونمـط شخصـيّة الإمـام الحسـين C هـو مـن نمـط الصـقور، إذن فاختيـار الموقـف السياسـي جـاء مـن مكوّنـات نفسـية، الحسـن هو حمائمي الطبع، والحسين هو صقري الطبع!

نحـن نعتقـد أنَّ هـذا تفكيـرٌ خـاطئ، رغـم اعتقادنـا بـأنَّ شخصـيات النـاس، والأئمّـة والأنبيـاء G هـي ليسـت مـن نمـط واحـد تمامـاً، لكـن أهـل البيـت الـذين أذهـب الله عـنهم الـرجس وطهـرهم تطهيـراً، والـذين يتطـابقون مع الحـقّ دائمـاً، «علـي مـع الحـقّ، والحـقّ مـع علـي، يـدور معـه حيثمـا دار»[١]،

(١) بحار الأنوار ١٠: ٤٥١؛ شرح نهج البلاغة ١٨: ٧٢.

لا يمكن أن نقبل فيهم فرضية الخضوع للتركيب النفسي، وإنَّما هو استحقاق الواقع، وهو الذي يحسم الموقف. ولهذا أنت لا تستطيع أن تقول: علي من الصقور، أو من الحمائم، هذا كلام خاطئ، فعلي C مرّة نجده من الصقور، ومرّة نجده وديعاً من الحمائم، وهو نفسه علي.

إذن القضيّة ليست تركيبية نفسية، صقور أو حمائم، وإنَّما هي استحقاق الواقع والمصلحة الدينية، مرّةً نرى علياً جالساً في زاوية الدار، بحيث أنَّ الزهراء J تعاتبه وتقول له: «اشتملتَ شملَةَ الجَنين، وقعدت حجرة الظنين»(١)، لكن نجد علياً C نفسه هو بطل الأبطال في معركة بدر وأُحُد وصفين والجمل والنهروان ومواقف أخرى، إذن القضيّة هي ما تفرضه طبيعة الواقع والمصلحة، وليست هي التركيبة النفسية.

الإمام الحسن C قاد المعركة بعد الإمام علي C ، وجهَّز جيشاً كانت مقدّمته في المدائن، وكان على رأس الجيش عبيد الله بن العبّاس، واختلفت الروايات حول القوة العسكرية التي جهَّزها الإمام الحسن C ، ثلاثون أو ستون ألفاً. لقد دخل الإمام الحسن في مواجهة حين رأى أنَّ الموقف الشرعي يفرض عليه ذلك، ولا يمكن القبول بمعاوية إلاَّ إذا أصبحت المصالح الدينية تفرض على الإمام الحسن أن يقبل الصلح.

الإمام الحسين C مهما قلنا في شخصيته، لكنَّه ولمدّة عشر سنوات أيام معاوية وبعد شهادة الإمام الحسن C كان من نمط الحمائم _ كما يُصطلح عليه اليوم _، وقد طلب منه أهل العراق أيام معاوية أن ينهض، لكنَّه رفض ذلك.

إذن، تشخيص الإمام الحسين C هو نفس تشخيص الإمام الحسن C

(١) الاحتجاج ١: ١٤٥.

حينما كانت الظروف واحدة. ولم ترتبط القضيّة بالتركيبة النفسية.

هناك رواية تقول: إنَّ الزهراء J جاءت إلى رسول الله 9 ومعها الحسن والحسين، فقالت له: «يا أبتاه، هذان ابناك فورّثهما شيئاً»، فقال: «أمّا الحسن فله هَيبَتي وسؤدَدي، وأمّا الحسين فله جودي وشجاعتي ـ وفي رواية: جودي وجرأتي ـ»[1].

ومن هنا قد يبدو أنَّ القضيّة هي قضيّة وراثية، وأنَّ الحسن C هو بالطبع إنسان حكيم ومناور وليس من النمط القتالي، وأمّا الإمام الحسين C فهو أهل قتال ومبارزة بحسب الطبيعة الوراثية.

هذا تفكير غير مقبول، رغم أنَّ رسول الله 9 كان يشير إلى أنَّ الحسن سينجز صلحاً، حين قال عنه: «إنَّ ابني هذا سَيِّد ولَعلَّ اللهَ ﷻ يُصلحُ بهِ بَينَ فِئتين عظيمتين من المسلمين»[2]، وهذه الرواية واردة في كتب الحديث، وتكاد تكون متّفق عليها، مما يعني أنَّ هناك ـ وبحسب علم الغيب، وبحسب اتصال رسول الله 9 بالغيب ـ تخطيط مسبق أنَّ الحسن سوف يصالح، والحسين سوف ينهض ويقاتل، لكن هذا لم يكن لطبيعة التأثيرات الوراثية، بل كان تابعاً لاستحقاقات الواقع الخارجي.

الصلح والثورة مواقف متحرّكة:

النقطة الثانية: أنَّ الصلح والثورة هما من المواقف المتحرّكة وليسا من المواقف الثابتة، بمعنى أنَّهما من وجهة نظر الإسلام يخضعان لاستحقاقات الواقع الخارجي، وليسا من المبادئ الثابتة.

---

(١) إعلام الورى ١: ٤١٢؛ كنز العمال ٧: ٢٦٨/ ح ١٨٨٣٩.

(٢) عمدة الطالب: ٦٥؛ مسند أحمد ٥: ٤٩؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٧٥.

إنَّ مذهب الزيدية ـ وهم أتباع زيد بن علي C الموجودين في اليمن اليوم ـ هؤلاء تصوّروا أنَّ الجهاد والثورة وحمل السلاح هو موقف ثابت لا يتغيّر، فالإمام الذي لا يحمل السيف والسلاح ليس بإمام، واعتبروا الجهاد المسلّح من الثوابت، بينما في رؤية أهل البيت G وأتباعهم الشيعة الإمامية أنَّ العمل المسلّح ليس من الثوابت، بل مرّةً يكون الموقف هو الحرب المسلّحة، مثل حروب النبي 9 في المدينة المنوّرة، ومرّةً يكون الموقف هو الحوار أو الصلح أو الهدنة، أو غير ذلك، مثل موقف النبي 9 في مكّة المكرّمة خلال ثلاثة عشر سنة، فإنَّه لم يخض حرباً مسلَّحة.

إذن العمل المسلّح والعمل غير المسلح هما من المواقف المتحرّكة، وليسا من المواقف الثابتة، ولهذا نجد أئمّتنا G اختلفوا في تشخيص الموقف بحسب اختلاف الظروف، مرّةً يكون عملاً جهادياً، ومرّةً عملاً علمياً، ومرّةً أخلاقياً، ومرّة مناورةً سياسية، وهكذا.

الإمام الحسن C خطب الناس في الليلة التي استشهد الإمام علي C في صبيحتها، وقال: «أيّها الناس، مَن عرفني فقد عَرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن الوصي، وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبرئيل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأنا من أهل البيت الذي افترض الله مودّتهم على كل مسلم»[1]، واستمر لشحذ الهمم لبيان أنَّ

---

(١) كشف الغمة ٢: ١٦٩؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٧٢.

الإمامة هيَ حقُّه.

ثمّ قام ابن عبّاس وقال:

(معاشر الناس هذا ابن نبيكم، ووصي إمامكم، فبايعوه)، فاستجاب له الناس، وقالوا: ما أحبّه إلينا، وأوجب حقّه علينا(١).

لاحظوا هذه النقطة المهمّة، أنَّ قيس بن سعد بن عبادة الذي كان من الأبطال، ومن أصحاب أمير المؤمنين الخلّص، وكان قد جعله الإمام والياً في مصر ثمَّ سحبه، وأبوه قيس بن عبادة الأنصاري الذي لم يبايع في السقيفة، وهاجر إلى الشام، وهناك دُبّرت له عملية اغتيال فقتل، وهي أوّل عملية اغتيال سياسي في التاريخ الإسلامي، قيس بن سعد بن عبادة كان من الأبطال في معارك الإمام علي C ، ولمّا صارت الخلافة إلى الحسن C جاء وقال:

(أبسط يدك أبايعك على كتاب الله ﷻ، وسُنّة نبيه، وقتال المُحلّين)، ويقصد بالمُحلّين: الخارجين على الإمامة. لكن الإمام الحسن C قال: «على كتاب الله، وسُنّة رسوله، فإنَّهما يأتيان على كلِّ شرط»(٢).

لماذا نضيف شرطاً آخر فوق الكتاب والسُنّة؟ أنت تضيف شرطاً متحرّكاً إلى الثوابت في الإسلام، نحن لدينا الكتاب من الثوابت، والسُنّة من الثوابت، أمّا أن تضيف أمراً متحرّكاً حسب الزمن وحسب المكان وهو القتال فتجعله شرطاً على بيعتي فهو أمر مرفوض. القتال مرّةً يكون هو الموقف الصحيح، ومرّةً لا يكون هو الموقف الصحيح، فلماذا تفرض عليَّ القتال كشرط في البيعة.

---

(١) الإرشاد ٢: ٨؛ إعلام الورى ١: ٤٠٧.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ١٢١؛ الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٢.

هذه هي ثقافة أهل البيت G .

الإمـام علـي C فـي الشـورى السداسـية التـي رسـمها عمـر بـن الخطـاب، لمّـا قـال لـه عبـد الـرحمن بـن عـوف: (أبسـط يـدك أبايعـك علـى كتـاب الله، وسُـنّة رسـوله، وسـيرة الشـيخين أبـي بكـر وعمـر)، فقـال: «بـل على كتاب الله، وسُنّة رسوله، واجتهاد رأيي»، فعدل عنه إلى عثمان[1].

كـان الإمـام علـي مسـتعدّاً لأن يخسـر الحكـم بأكملـه مـن أجـل أن يؤكّد لنا أن لا تكون اجتهاداتنا الشخصية ثوابت ومقدّسات.

لقـد كـان تشـخيص الإمـام الحسـن C يومئـذٍ أنَّ الإرادة العراقيـة غيـر قـادرة يومئـذٍ علـى مواصـلة القتـال، لكـن لأجـل أن يقـيم الحجّـة علـيهم قـام بتعزيـز القـوات وحشـدها إلـى أن فُـرض عليـه الصـلح، ورأى الإمـام المعصوم أنَّ الصلح هو الأولى للحفاظ على البقية المتبقية.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) راجع: شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨.

(٩ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة التاسعة:

سياسات الإمام الحسن C

(إجابة على مجموعة أسئلة)

بسم الله الرحمن الرحيم

ما زال الحديث عن سياسات الإمام الحسن C .

والليلة نحاول أن نجيب على مجموعة أسئلة تخصّ الإمام الحسن C .

نحن نعلم أنَّ الحسن C لُقّب بكريم أهل البيت G ، وتولّى الإمامة الشرعية بعد أمير المؤمنين C من سنة (٤٠ هـ) إلى سنة (٥٠هـ)، وكانت شهادة أمير المؤمنين سنة (٤٠ هـ) في شهر رمضان، فالإمام الحسن C من يومئذٍ أصبح هو الإمام الشرعي، واستمر إلى سنة ٥٠ للهجرة، ومن سنة ٥٠ للهجرة إلى سنة ٦١ للهجرة كانت إمامة الإمام الحسين C ، وفي هذه العشر سنوات برز الإمام الحسن C بخطّ العلاقات الاجتماعية الواسعة، هادفاً من ذلك إلى الحفاظ على الإطار الإسلامي العام، وعلى كتلة شيعة أهل البيت، وفي الأشهر الأولى جرى الصلح بين الإمام الحسن C وبين معاوية.

هناك خمسة أسئلة نستعرضها بشكل موجز:

السؤال الأوّل: لماذا لم يُؤثِر الإمام الحسن C الشهادة، ولم يمارس الدور الاستشهادي كالحسين C ؟

السؤال الثاني: إذا كان الإمام الحسن C لم يمارس الدور الاستشهادي، فلماذا لم يمارس الدور العبادي مثل الإمام زين العابدين C ، ويؤدّي دوره في الأمّة من خلال العبادة؟

السؤال الثالث: لماذا لم يمارس الإمام الحسن C الدور العلمي،

ولـم يـؤثِر دور العلـم وبنـاء الحـوزة العلميـة، كمـا صـنع الإمـام البـاقر والإمـام الصادق H ؟

السؤال الرابع: لماذا صالح الإمام الحسن C معاوية؟

السـؤال الخـامس: مـا هـو الـدور الـذي مارسـه الإمـام الحسـن C ؟ وكيف حفظ لنا هذه الرسالة؟

وفـي الإجابـة علـى هـذه الأسـئلة الخمـس نقـول: إنَّ الإمـام الحسـن C مـارس دور بنـاء العلاقـات الاجتماعيـة، والحفـاظ علـى الكتلـة الصـالحة وهـم شـيعة أهـل البيـت مـن خـلال ممارسـته لخـطّ العلاقـات الاجتماعيـة ومداهنـة السـلطة؛ لأجـل أن لا تـتم عمليـة التصـفية الكاملـة لشـيعة أهـل البيـت G ؛ ولأجـل أن تبقـى الشـعارات الإسـلاميّة، ويبقـى الإسـلام محفوظاً ولـو علـى مسـتوى الشـكل، بعـد أن كـان الحكـم الأمـوي عازمـاً علـى حـذف الإسـلام شـكلاً ومضـموناً. لأنَّ السياسـة الأمويـة كانـت بالضـدّ مـن جـوهر الإسـلام، والإمـام عمـل علـى أن يبقـى الإسـلام ولـو علـى مسـتوى الشـكل، وأن لا تتجـرّأ السـلطة علـى مواجهـة علانيـة مـع الإسـلام فيعلنـون الكفـر، ولهـذا فقـد حافظـت السـلطات الأمويـة علـى الشـكل الإسلامي، وكذلك العبّاسيون، ولم يتمرّدوا على الإسلام بشكل مُعلن.

هذا هو دور الإمام الحسن C ، ونحن نحاول الإجابة على هذه الأسئلة.

لماذا لم يؤثر الشهادة؟

لماذا لم يستشهد الإمام الحسن C في القتال ضدّ الباطل؟

يـأتي بعـض المستشـرقين وكتّـاب الغـرب مثـل (رونالدسـن) و(فيليـب) ليقولـوا: إنَّ الإمـام الحسـن C إنَّمـا لـم يُـؤثِر الـدور الاستشـهادي لمشـكلة

فـي لياقتـه النفسـية؛ حيـث لـم يكـن يتمتَّـع باللياقـات القياديـة، وبالتـالي انسحب عن خطّ القتال ولم يمارس دور الشهادة!

والجواب: أنَّ هذا تصوّر خاطئ، فالإمام علي C بعد الصلح رجع إلى الكوفة، والمعركة كانت في صفين، وبقى ينتظر في الكوفة حتّى يأتي أشقاها، فلا توجد حرب، ولكن كانت اغتيالات، ولم يدخل معركة استشهادية، بل أصبحت مثل هذه المعركة خاسرة لو كان الإمام علي C يريد خوضها، لو كان الإمام علي C بعد أحداث صفين والخوارج يصرُّ على الدخول في معركة بأصحابه ويستشهدون مثل الحسين C كان سيقال: إنَّ هذا العمل تهوّر وخلاف التحكيم الذي حدث بين عمرو بن العاص ومن يمثل طرف الإمام علي C وهو أبو موسى الأشعري، العمل الاستشهادي غير مبرّر، وسيقال: إنَّ هذا إصرار وعناد.

ولهذا فإنَّ الإمام علي C _ وهو رمز البطولة _ كان ينتظر من يأتي ويقتله.

الإمام الحسين C كذلك، فمنذ سنة ٥٠ للهجرة _ أي بعد شهادة الإمام الحسن C مسموماً على يد جعدة بنت الأشعث _ إلى سنة ٦١ للهجرة، ماذا صنع الإمام الحسين C في هذه السنوات العشر؟ لم يمارس دوراً استشهادياً، بل كان يقول: ما دام معاوية حيّاً فإنّي لا أنهض ولا أثور، لأنَّ الظروف غير مواتية، ولم يثُر الإمام الحسين C إلاَّ بعدَ هلاك معاوية.

ومن هنا كانت تأتي شبهة (طه حسين) في أنَّ الإمام الحسين C كان يختلف مع أخيه الحسن C في الرأي، وهي شبهة غير صحيحة، فهو يذكر في كتابه (علي وبنوه _ الفتنة الكبرى) أنَّ الإمام الحسين C كان يختلف مع أخيه

الحسن C في صلحه مع معاوية، وهذا خطأ؛ بدليل أنَّ الحسين C لو كان له رأي آخر، لبرز هذا في الموقف، وجسَّده الإمام الحسين C حينما كان إماماً؛ لأنَّنا وجدناه يمارس نفس الخطّ إلى أن هلك معاوية.

وبالفعل جاءت وفود إلى الإمام الحسين C يطلبون منه البيعة، يا أبا عبد الله، أخوك الحسن C لم ينهض، انهض أنت.

قال C : «لا، ما دام معاوية حيّاً، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا، والمعونة على أمرنا...»[1].

يبدو أنَّ المعركة الاستشهادية أيام معاوية بتقدير الإمامين H تعتبر عملاً خاسراً ربما للسياسات الدعائية والنفاقية الكبيرة التي كان يمارسها معاوية[2]، بحيث إنَّه كان قادراً على تغطية الموقف، فيما يُظهر

(١) راجع: الإمامة والسياسة ١: ١٤٢.

(٢) من سياساته الدعائية النفاقية أنَّه لما قرأ كتاب قيس بن سعد عامل أمير المؤمنين C على مصر جواباً على كتابه له يُمنّيه ويهدّده فيه، وعلم أنَّه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة، بقوله: أمّا بعد، فالعجب من استسقاطك رأيي، والطمع في أن تسومني - لا أباً لغيرك - الخروج من طاعة أولى الناس بالأمر، وأقولهم بالحقّ وأهداهم سبيلاً، وأقربهم من رسول الله وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك وطاعة أبعد الناس من هذا الأمر... الخ.

يقول ابن أبي الحديد: فلمّا أتى معاوية كتاب قيس، أيس وثقل مكانه عليه، وكان أن يكون مكانه غيره أحبّ إليه، لما يعلم من قوته وتأبيه ونجدته، واشتداد أمره على معاوية، فأظهر للناس أنَّ قيساً قد بايعكم، فادعوا الله له. وقرأ عليهم كتابه الذي لان فيه وقاربه، واختلق كتاباً نسبه إلى قيس فقرأه على أهل الشام: للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد. أما بعد، إنَّ قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً، وقد نظرت لنفسي وديني، فلم أرَ يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً براً تقياً، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا. ألا وإنّي قد ألقيت إليكم بالسلام، وأجبتك إلى قتال قتلة إمام الهدى المظلوم، فاطلب منّي ما أحببت من الأموال والرجال أعجّله إليك إن شاء الله، والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته. \

الإمام الحسن والإمام الحسين H وكأنَّهم هم المتمرّدون والمخالفون للصلح ولرضى الجمهور.

لماذا لم يمارس دور الدعاء؟

أمّا لماذا لم يمارس دور الدعاء والبكاء مثل الإمام زين العابدين C ؟

فالجواب على ذلك أنَّ الاستحقاقات الاجتماعية والثقافية يومئذٍ كانت تختلف عن الاستحقاقات في زمن الإمام زين العابدين C .

الإمام زين العابدين C واجه أمّة منكوبة بعد شهادة الإمام الحسين C ، والكلّ كان يعرف أنَّ هذه نكبة حقيقية للأمّة، مقتل الحسين C ، ورمي الكعبة بالمنجنيق، وإباحة المدينة المنوّرة.

لا يوجد أحد إلاَّ وكان مفجوعاً تحت موجة الطغيان اليزيدي، والشعور العام بوجود نكبة حقيقية عند المسلمين، ولهذا فإنَّ جميع المسلمين شاطروا الإمام الحسين C في شرعية حركته؛ لأنَّه يعرفون أنَّ حركة الحسين C مقدَّسة، ومعركة يزيد غير مقدَّسة، بينما كان الوضع يختلف أيام الإمام الحسن C ، فالناس هنّئوا بالصلح مع معاوية، ولهذا فإنَّ موجة الأسى والحزن في العالم مكّنت الإمام زين العابدين C أن يبرز بدور الدعاء والبكاء.

[قال: فشاع في الشام كلّها أنَّ قيساً صالح معاوية، وأتت عيون علي بن أبي طالب إليه بذلك، فأعظمه وأكبره وتعجب له، ودعا ابنيه حسناً وحسيناً وابنه محمّداً وعبد الله بن جعفر، فأعلمهم بذلك، وقال: ما رأيكم؟ فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، اعزل قيساً عن مصر. قال علي C : والله إنّي غير مصدِّق بهذا على قيس... الخ. (راجع: شرح نهج البلاغة ٦: ٦٣).

لماذا لم يتفرغ للدور العلمي؟

الإمــام الحســن C لمــاذا لــم يتفــرَّغ للــدور العلمــي مثلمــا صــنع الصادقين H ؟

وذلك لأنَّ الحرّيات الثقافية كانت معدومة مائة بالمائة في زمن معاوية بن أبي سفيان، فمعاوية منع تفسير القرآن الكريم، ومنع تدوين الحديث، ومنع كل العالم الإسلامي أن يجلس واحد من الصحابة ويقول: قال رسول الله 9 ، حتّى أمثال ابن عبّاس، مصادرة الحرّية الثقافية بشكل واسع، الإمام الحسن لم يكن قادراً على عقد حلقة دراسية، والحديث واسع جدّاً عن هذه الأمور.

لماذا صالح الإمام الحسن C ؟

أما لماذا صالح الإمام الحسن C ؟

فيقول C : صالحتُ حفاظاً على أتباع أهل البيت G ، وحفاظاً على هذه الكتلة، فقد كان لديه وضوح أنَّ الحرب تكون نتيجتها التصفية الكاملة بدون وعي جماهيري، حتّى لا يبقى أحد ينعى الإمام الحسن C بينما لمّا قُتل الإمام الحسين C عُقدت له مجالس العزاء في العالم وإلى يومنا هذا، ولكن الإمام الحسن C يقول: لو كنت أواصل هذا الخطّ لا يبقى للإسلام ناعي؛ لأنَّ الصورة ستكون كخارجي خرج على حكم معاوية، بينما يلبس معاوية الثوب الديني ويَقتل الإمام الحسن C ، ويلعن الناس الإمام الحسن C !!، وهناك نصوص للإمام في هذا الشأن[1].

---

(١) **منها**: ما روي أنَّ المسيب بن نجبة قال للحسن C : ما ينقضي عجبي منك! بايعت معاوية ومعك أربعون ألفاً، ... قال: «فما ترى؟»، قال: أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه، فقد نقض ما كان بينه وبينك. فقال: «يا مسيب، إنّي لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب منّي، ولكنّي أردت صلاحكم، وكفّ بعضكم عن بعض، فارضوا بقدر الله وقضائه، حتّى يستريح بر، أو يستراح من فاجر».
\

والخطّ الذي مارسهُ هو خطّ العلاقات الاجتماعية الواسع، والحفاظ على كتلة أهل البيت G من المطاردة والاستئصال، ويبقى خطّ معارضة يضغط على الحكم باتّجاه المحافظة على الإسلام بأيّ مستوى من المستويات، هذا هو الخطّ الذي مارسه الإمام الحسن C ، ولهذا فقد لُقّب بكريم أهل البيت G ، رغم أنَّهم كلّهم كرماء، لكن سلسلة علاقاته الاجتماعية وحرصه على البقاء في عمق الجمهور هو الذي جعله يُعرف بهذا اللقب. وبودّنا أن نشير إلى مجموعة قصص:

منها: أنَّ شامياً رآه راكباً، فجعل يلعنه والحسن C لا يرد، فلمّا فرغ أقبل الحسن عليه وضحك وقال: «أيّها الشيخ، أظنّك غريباً، ولعلَّك شَبَّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنياك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأنَّ لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كبيراً».

فلمّا سمع الرجل كلامَه بكى، ثمّ قال: أشهد أنَّك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالاته، وكنتَ أنت وأبوك أبغضَ خَلق الله

[**ومنها**: أنَّه دخل عليه سفيان بن أبي ليلى النهدي، فقال له: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين! فقال الحسن: «أُجلس يرحمك الله، إنَّ رسول الله 9 رفع له ملك بني أميّة، فنظر إليهم يعلون منبره واحداً فواحداً، فشقَّ ذلك عليه، فأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً قال له: [وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ]. وسمعت علياً أبي ; يقول: سيلي أمر هذه الأمّة رجل واسع البلعوم، كبير البطن. فسألته: من هو؟ فقال: معاوية. وقال لي: إنَّ القرآن قد نطق بملك بني أميّة ومدّتهم، قال تعالى: [لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ]، قال أبي: هذه ملك بني أميّة». (راجع: شرح نهج البلاغة ١٦: ١٦).

إلـيَّ، والآن أنـت أحـبّ خلـق الله إلـيَّ، وحـوَّل رحلـه إليـه، وكـان ضـيفه إلـى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبّتهم[١].

لمّا توفى الإمام الحسن C بكى مروان بن الحكم في جنازته.

فقال له الإمام الحسين C: «أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه!».

فقـال مـروان: إنّـي كنـت أفعـل ذلـك إلـى أحلـم مـن هـذا ـ وأشـار بيـده إلى الجبل ـ[٢].

لقـد كـان الإمـام C يفـرض شخصـيته حتّـى علـى معاويـة، لأنّهـم يعرفون أنَّ الأئمّة مكمن ثورة.

بعـض المـؤرِّخين كـابن أثيـر فـي (الكامـل فـي التـاريخ) يـروي: أنَّ مـروان بـن الحكـم قـال يومـاً: إنّـي مشـغوف ببغلـة الحسـن بـن علـي، فقـال لـه ابن أبي عتيق: إن دفعتها إليك تقضي لي ثلاثين حاجة؟

قال: نعم.

قـال: إذا اجتمع النـاس فـإنّي آخـذ فـي مـآثر قـريش وأُمسـك عـن مـآثر الحسن، فَلُمني على ذلك.

فلمّـا حضـر القـوم أخَـذ فـي أوّليـة قـريش، فقـال مـروان: ألا تـذكر أوّلية أبي محمّد وله في هذا ما ليس لأحد؟!

قال: إنَّما كنّا في ذكر الأشراف، ولو كنّا في ذكر الأنبياء لقدَّمنا ذكره.

فلمّـا خـرج الحسـن C ليركـب تبعـه ابـن أبـي عتيـق، فقـال لـه الحسـن ـ وتبسّم ـ: «ألك حاجة؟».

قال: نعم، ركوب البغلة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٤، حكاه ابن شهرآشوب عن المبرّد.

(٢) تاريخ دمشق ١٣: ٢٥٢؛ السيرة الحلبية ٣: ٣٦٠.

فنـزل الحسـن C ودفعهـا إليـه. (إنَّ الكـريم إذا خادعتـه انخـدعا)[١].
الحديث عن كرم الإمام عجيب، ولهذا سُمّي بكريم أهل البيت G .

أدوار الأئمّة G :

حـدّثتكم عـن ثلاثـة أدوار: دور للإمـام علـي C ، ودور للإمـام الحسن C ، ودور للإمام الحسين C .

ما هو دور الإمام الحسن C ؟

كان دور الإمام علي C هو سلب الشرعية من الحكم المنحرف، فهو يعرف أنَّه يخسر المعركة المسلّحة؛ ولكن يجب أن يسلب الشرعية من حكومة معاوية ولا يأتي يوم يقال: إنَّ معاوية هو الخليفة الخامس.

دور الإمـام الحسـن C هـو دور كشـف الهويـة المعاديـة للإسـلام، وفسـاد الحكـم الأمـوي، وسـرعان مـا انكشـفت هـذه الهويـة وإلـى اليـوم، وأنَّـه حكـم قـومي يقـوم علـى أسـاس طلـب الرئاسـة ولـيس الـدين، ولا يوجـد كاتب وإلى اليوم يقول: إنَّ معاوية كان يطلب الحكم قربة إلى الله.

أمّا الإمام الحسين C فقد كان دوره هو بثّ الروح الثورية.

سفر الإمام الحسن C إلى الشام:

الإمـام الحسـن C سـافر مـن المدينـة إلـى دمشـق الشـام، وذلـك أنَّ الإمـام الحسـن C بعـد شـهادة الإمـام علـي C كـان فـي الكوفـة، وتـولّى الإمامـة وهـو فـي الكوفـة، وجهَّـز جيشـاً لخوض الحـرب مع جيش الشـام فيهـا أيضـاً، لكـن بعـد الصـلح بـين الإمـام الحسـن C وبـين معاويـة آثـر الإمـام

(١) راجع: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٤، عن الكامل في التاريخ ١: ٣٧٩/ ط: القاهرة.

C الانتقال إلى المدينة المنوّرة، أي إنَّ السلطة الرسمية أصبحت لمعاوية، والإمام الحسن C في العراق لا يمارس سلطة سياسية، فآثر C الانسحاب إلى المدينة المنوّرة، وبالفعل انسحب C إليها.

لكن التاريخ يحدّثنا عن مجموعة سجالات ومعارك إعلامية بين الإمام الحسن C وبين معاوية في محافل جماهيرية في الشام، مما يعني أنَّ الإمام C سافر إلى دمشق، ربما مرّة واحدة، أو أكثر، وكان لحضوره في الشام جدل شديد في البلاط الأموي مع معاوية، واليوم نستعرض هذا السؤال:

لماذا سافر الإمام الحسن C ؟

لماذا سافر الإمام الحسن C من المدينة إلى الشام؟

هناك ثلاثة آراء في هذا السفر، ولقد كان فرصة مفتوحة للإمام الحسن C لتسجيل رؤاه في معاوية وحكمه وبشكل علني، ولدينا عشرات النصوص في الجدل الذي كان بين معاوية والإمام الحسن C ، ومن جملتها في القصر الأموي[1].

الإمام الحسن C ومعاوية جالسان.

فقال معاوية: أنا أخير منك يا حسن.

قال: «وكيف ذاك يا ابن هند؟».

قال: لأنَّ الناس قد أجمعوا عليَّ ولم يجمعوا عليك.

قال: «هيهات، هيهات، لشرَّ ما علوتَ يا ابن آكلة الأكباد، المجتمعون عليك رجلان بين مطيع ومكره، فالطايع لك عاص لله،

---

(١) راجع احتجاجه C على جماعة من المنكرين لفضله وفضل أبيه C بحضرة معاوية في: (كتاب الاحتجاج ١: ٤٠١).

والمكره معذور بكتاب الله، وحاشا لله أن أقول: أنا خير منك، فلا خير فيك، ولكن الله برّأني من الرذائل كما برّأك من الفضائل»[١].

وهذه السجالات تطوَّرت في البلاط الأموي على أكثر من صعيد، حتّى أنَّه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعتبة بن أبي سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، فقالوا لمعاوية: إنَّ الحسن قد أحيا أباه وذكره، وقال فصُدِّق، وأمَرَ فأطيع، وخَفقت له النعال، وإنَّ ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا[٢].

ولنعُد إلى السؤال عن سبب سفر الإمام إلى الشام، فقد قلنا هناك ثلاثة تفاسير:

الأوّل: التفسير الأوّل يقول: إنَّ الإمام الحسن C كان يذهب إلى دمشق كي يأخذ عطايا معاوية، كما ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخه، لكن هذا التفسير لا يملك ما يؤيّده، لأنَّ الإمام الحسن C لم يكن محتاجاً، وإذا كان معاوية يريد إعطاءه عطاءً فإنَّه كان يبعث به إلى المدينة؛ ولم يكن من شأن الإمام C الذهاب إلى الشام لأخذ عطاء، وهذه الرواية ينفرد بها ابن عساكر[٣]، ولا يمكن الاعتماد عليه تاريخياً.

الثاني: التفسير الثاني وهو الذي يميل له طه حسين، يقول: (إنَّ الإمام الحسن C أسس حزباً هو الحزب الشيعي، أراد أن يُعلن عنه ويدعو له في الشام)، لو كنّا نعتقد أنَّ طه حسين قد تأثَّر بالأجواء الحزبية في مصر والبلاد العربية، وافترض أنَّ التشيّع عبارة عن حزب سياسي.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦: ٢٨٥.

(٣) راجع: تاريخ دمشق ١٣: ١٦٦.

ولكن هذه أغلوطة كبيرة، فالحزب له سياساته، والدين والمذهب له سياساته الأخرى، والتشيّع ليس حزباً، بل هو رؤية إسلاميّة شاملة. وعلى كلّ الأحوال فإنَّ هذا التفسير يعتمد على رؤية تقول: إنَّ الإمام الحسن C كان في الحجّ وجاءه جمع من العراقيين وطلبوا منه البيعة، فشكَّل معهم الإمام C حزباً، وكتب لهم وصايا، وكان يأتي إلى الشام لغرض الدعاية الحزبية.

ولا بدَّ أن نؤكّد هنا أنَّ تاريخ التشيّع يرجع إلى ما قبل عهد الإمام الحسن C إلى الإمام علي C وعهد رسول الله 9 ، وحيث كان التشيّع يمثّل الإسلام الحقيقي، فكان علي C وأصحابه يُشار إليهم بالبنان، وكان الإمام C في زمن النبي 9 ميزاناً لمعرفة المنافقين والمخلصين، ولكن طه حسين يفهم أنَّ الإمام الحسن كان لديه حركة سياسية، وحركته السياسية هي عبارة عن تشكيل حزب اسمه (حزب الشيعة)، وكان يسافر إلى دمشق ليدعو إلى حزبه.

الثالث: التفسير الثالث يذكره سماحة الشيخ باقر شريف القرشي في كتابه (حياة الإمام الحسن C)، يقول: إنَّ الحسن C كان يذهب إلى الشام للدفاع عن رؤاه الصحيحة وللإعلام عن حقّانيته في الخلافة، وكان الإمام ينفتح على هذا الفضاء الإعلامي في الشام لكي يتحدّث عن المذهب.

الرابع: وهناك رأي يقول: إنَّ المسألة ربما تكون بدعوة من معاوية؛ كي يكون الإمام تحت السيطرة والرقابة المستمرة، وهذا رأي معقول رغم عدم وجود ما يدلُّ عليه من النصوص التاريخيّة، ولكنَّه ليس بعيداً من سياسة معاوية وأساليبه.

تلك كانت مجموعة تفاسير لسفر الإمام الحسن C إلى الشام، فكان الإمام الحسن C يقوم بفضح الموقف الأموي وبيان حقّانية أهل البيت G .

والحمد لله رب العالمين

(١٠ / محرم الحرام / ١٤٢٨ هـ)

المحاضرة العاشرة:

سياسات الحسين C

(دراسة مقارنة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الحسين C :

«ألا وإنَّ الدَّعيَّ ابنَ الدَعيَّ قّد رَكَزَ بَينَ اثنتين بَينَ السِّلّةِ والذّلّةِ، وهَيْهاتَ منّا الذّلَّة، يأبى اللهُ لَنا ذلكَ ورَسُولُه والمؤمِنون، وحُجور طابَت وَطَهُرت، وأنوفُ حَميَّة، ونُفوسٌ أبِيَّة مِنْ أن نؤثِرَ طاعَةَ اللِئام على مصارِع الكرام، ألا وإنّي زاحِفٌ بهذِهِ الأسْرَةِ عَلى قِلَّةِ العَدَدِ وخُذلانِ النّاصِر»[1].

هذه الليلة ليلة حاشدة بالأحداث، وهي ليلة العاشر من محرم الحرام، ولكن لنبقَ مع دراسة حركة الإمام الحسين C ، والسياسات التي انتهجتها، والشعارات التي رفعها، مقارنة بالسياسات والشعارات والمناهج التي رفعها أهل البيت G .

كان حديثنا في الليلة الماضية عن الإمام الحسن C .

وقفة مع الشعار الحسيني:

نلاحظ هذه الليلة أنَّ الإمام الحسين C رفعَ شعار: «هيهات منّا الذلّة»، وانطلق من مفهوم: «يأبى اللهُ لَنا ذلكَ ورَسُولُه والمؤمِنون، وحُجور طابَت وَطَهُرت، وأنوفُ حَميَّة، ونُفوسٌ أبِيَّة مِنْ أن نؤثِرَ طاعَةَ اللِئام على مصارِع الكرام»، بما يعني أنَّ الله تبارك وتعالى لا يقبل أن يكون أئمّة الحق أذلاّء بيد الأعداء، لا يقبل لهم الذلّة، ويجب عليهم أن يقاتلوا حتّى يُصرعوا ولا يخضعوا

(١) مثير الأحزان: ٤٠؛ اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٩.

للذلّ، هذا مفهوم، وهو وجوب المقارعة والمكافحة وعدم القبول بالظلم، هذا المفهوم نريد اليوم أن ندرسه دراسة بما يتناسب مع هذه الليلة وأحداثها، وهي دراسة موجزة للغاية، لكن من الحقّ أن نتساءل:

كيف يقول الإمام الحسين C ذلك؟ في الوقت الذي نرى فيه أنَّ الإمام الحسن C قد رضي بالخضوع لحكم منحرف هو حكم معاوية بن أبي سفيان. وهو ذلّ بلا شكّ، فكيف قبل إمامنا الحسن ذلك؟ يا تُرى هل هي سياسة أخرى؟

ثمّ تتطوَّر المسألة أكثر، إلى الإمام علي C ، أليس الإمام علي C قد خضع للمصالح التي فرضت عليه أن يتماشى مع الحكم القائم على عهد الخلفاء الثلاثة؟ فأين هذا من منطلق الإمام الحسين C الذي رفض أن يؤثِر طاعة اللئام على مصارع الكرام، فالإمام علي C لم يَدخل في عمل مسلَّح ضدّ الانحراف، والإمام الحسن C كذلك، في الوقت الذي نجد أنَّ الإمام الحسين C قد طرح مفهوماً ثابتاً واعتبره من ثوابت الإسلام حين قال: «يأبى اللهُ لَنا ذلكَ ورَسُولُه والمؤمِنون»، فكيف قبل الإمام علي C بالتحكيم المفروض عليه مع معاوية، وكيف بايع الخلفاء من قبله؟

والإمام الحسن C كذلك، كيف قَبِل بالصلح المفروض عليه؟

هذه أسئلة في غاية الأهمية، وهناك تشعّب في الحديث.

اختلاف في نمط المعركة:

سأذكر لكم شيئاً عن الاختلاف في نمط المعركة، هناك معركة تُسمّى معركة الاستئصال، وهناك معركة تُسمى معركة الإذلال، معاوية ابن أبي سفيان كانت سياسته وهدفه هو الاستئصال لأهل البيت G وجذورهم، وهنا كان يتعيّن على الأمام الحسن C أن يدخل معهُ

معركة الحياة والموت، فيجب أن يحافظ على الكتلة الصالحة، ويحافظ على الإسلام أن لا ينتهي. ونفس هذا الدور قام به الإمام علي C ، حيث كان يواجه معركة استئصال من الجذور، وبالتالي يجب أن يحافظ على الكتلة الصالحة.

لكن الإمام الحسين C واجه معركة أخرى من قِبَل يزيد بن معاوية، وهي ليست معركة استئصال، وإنَّما هي معركة إذلال، حيث أراد أن يبايعه المسلمون على الرق والعبودية، يزيد كان أحمقاً ولم يكن داهية، بخلاف معاوية، معاوية كان لديه دهاءً سياسياً، وكان يخطّط لاستئصال أهل البيت G واستئصال الإسلام الحقيقي، وبالتالي فإنَّ المعركة قد اختلفت، الإمام الحسن C كان يتحمّل مسؤولية المحافظة على حياة الإسلام والمسلمين، بينما الإمام الحسين C كان يتحمّل مسؤولية إعطاء الكرامة والعزّة في مقابل معركة الإذلال، هنا معركة استئصال، وهناك معركة إذلال، ولهذا نجد أنَّ الإمام الحسن C طرح شعاراً آخر، الإمام الحسين C كان شعاره: «هيهات منّا الذلة»، ولكن الإمام الحسن C قال: «والله لأن تذّلوا وتُعافوا أحبُّ إليَّ مِن أن تعزّوا وتُقتلوا»[1]، ويعني بذلك: أن تبقوا أحياءً بعيداً عن الاستئصال رغم الذل أحبُّ إليَّ من أن تكونوا أعزّاءَ ولكن لا يبقى منكم أحد، وينتهي بنهايتكم جذر الإسلام وجذر التشيع.

إذن، هذان شعاران مختلفان حسب استحقاقات وطبيعة المعركة.

حديثنا اليوم عمّا هي المناهج التي اتّبعها الإمام الحسن C في معركته السياسية، بعد أن اعتبر مسألة الصلح حقيقة مفروضة، مثل التحكيم عند الإمام

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٤٢.

علي C ، فرغم أنَّ أحداً لا يشكّ في قداسة وبطولة وخبرة الإمام علي C ، لكن التحكيم كان أمراً مفروضاً عليه. وكذلك الصلح مع معاوية بعد أن أصبحت قضيّة الصلح قضيّة فرضت نفسها على الأرض، حين وجد الإمام الحسن أنَّ الجيش الذي قاتل خمس سنوات أصبح جيشاً منهاراً، حتّى أنَّ الإمام علياً C في الأيام الأخيرة كان يستغيث ويصرخ بهم ولا أحد يستجيب له، فماذا يصنع الإمام الحسن C ؟ فإذا لم يتطوَّع الناس فالإمام علي C غير قادر على القتال، ولا الإمام الحسن C قادر على القتال، إلاَّ أن يخوض عملية استشهادية مثلما كان موقف الإمام الحسين C .

لماذا لم يتقدّم الحسن C نحو الشهادة؟

وقد يسأل سائل: لماذا لم يتقدَّم الإمام الحسن C لخوض معركة استشهادية مثل الحسين C ؟

الجواب: لأنَّ الإمام الحسن C ما كان يواجه خيار الشهادة، بل كان يواجه خيار الغدر والاغتيال من قِبَل معاويةَ، أو أن يُسلّم أسيراً ثمّ يُطلق سراحه. ومعاوية كان لديه دهاء، وكان يستطيع أن يقتل الإمام الحسن C ثمّ يبكي عليه أو يطالب بدمه!!

معاوية أذكى من يزيد، يزيد أسقط الحكم الأموي إلى الأبد بقتل الحسين C ، أمّا معاوية فإنَّه كان يغتال الإمام الحسن C إمّا بسهم طائش، أو سم في طعام، ثمّ يتنصّل من الجريمة. أو كما توقَّع الإمام الحسن في أحد الخيارات المحتملة، أن يُؤخذ الإمام الحسن أسيراً، ثمّ يقف معاوية ويقول: أطلقتُ سراحك محبّة لرسول الله 9 . بينما كان موقف يزيد هو القتل والسبايا وحمل الرؤوس، هذا هو الموقف الأهوج ليزيد بن معاوية.

الإمام الحسن C كان يواجه عدّة خيارات:

الأوّل: **خيار الاغتيال،** مثلما فعل معاوية مع مالك الأشتر حين أرسله الإمام علي إلى مصر والياً، ولكنَّه قَبْلَ أن يَصِلَ إلى مصر اغتاله معاوية بسمٍّ دسَّه له في العسل، وقال مقولته الشهيرة: (إنَّ لله جنوداً من عسل)[1]. وتصوّروا أنَّ الإمام الحسن C لو كان يُقتل غيلة، ثمّ يقال: إنَّ جماعته هم الذين قتلوه.

الثاني: **أن يؤخذ أسيراً إلى معاوية،** فإنَّه سوف لن يتحقّق مشروع الشهادة الذي حقَّقه الإمام الحسين C .

وأمام هذه الخيارات كان الإمام الحسن C يقول: «والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتّى يدفعوني إليه سلماً، والله لئن اُسالمه وأنا عزيزٌ خيرٌ من أن يقتلني وأنا أسيره، أو يمُنُّ عليَّ فتكون سبَّة على بني هاشم آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يمُنُّ بها وعقبه على الحيّ منّا والميت»[2].

مهمّات الحسن C بعد الصلح:

ما هي سياسة الإمام C بعد الصلح، وخلال عشر سنوات من (٤١) للهجرة إلى (٥١) للهجرة؟

لقد عمل الإمام على عدّة خطوط:

أوّلاً: التثقيف السياسي، وكشف هوية الحكم الأموي الثقافية.

ثانياً: مواجهة حرب الاستئصال والانتصار فيها، والمحافظة على جماعة أهل البيت وشيعتهم.

---

(١) راجع: تاريخ دمشق ٥٦: ٣٩١.

(٢) الاحتجاج ٢: ١٠؛ عنه: بحار الأنوار ٤٤: ٢٠.

ثالثاً: الامتداد في جسم الأمّة، وتأكيد إمامتهم الشرعية.

كانت هذه سياسات الإمام الحسن C .

أمّا المهمّة الأولى، فمنذ أوّل يوم من عقد المصالحة مع معاوية بدأ الإمام الحسن C يقدِّم خطاباً سياسياً من نمط خاص، يؤكّد فيه أنَّ هذا الحكم حكم منحرف غير شرعي، وتأتي كلمات الإمام الحسن C واحدة بعد أخرى، يقول فيها: «إنَّ معاوية نازعني حقّاً هو لي، فتركته لصلاح الأمّة وحقن دمائها»(١)، «إنَّ معاوية زعم أنّي رأيته للخلافة أهلاً ولم أرَ نفسي لها أهلاً!، كذب معاوية، نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله وعلى لسان نبي الله، فأقسم بالله لو أنَّ الناس بايعوني وأطاعوني ونصروني، لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمعت فيها يا معاوية، ولقد قال رسول الله 9 : ما ولَّت أمّةٌ أمرَها رجلاً قط وفيهم من هو أعلم منه إلاَّ لم يَزل أمرُهم يذهب سفالاً حتّى يرجعوا إلى مِلّة عَبَدَة العجل»(٢).

الإمام الحسن C كان يجتمع بأهل العراق بعد الصلح، وعندما كانوا يطلبون منه الرجوع عمّا تمَّ من الصلح والعودة إلى القتال كان C يقول لهم: «ليكن كل رجل منكم حِلساً(٣) من أحلاس بيته، ما دام معاوية حيّاً، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء، سألنا الله العزيمة على رشدنا، والمعونة على أمرنا، وأن لا يكِلَنا إلى أنفسنا، فإنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون». فدخلوا على الحسين C ، فعرضوا عليه ما عرضوا على الحسن C ، وأخبروه بما ردَّ عليهم، فقال الحسين C : ليكن كلّ رجل منكم حِلساً من أحلاس بيته، ما دام

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٩٦.

(٢) الاحتجاج ٢: ٨.

(٣) الحِلس: هو ما يلي الظهر من الدّابة تحت البرذعة، والمعنى: الزموا بيوتكم ولا تبرحوها.

معاوية حيّاً، فإنَّها بيعة كنت والله لها كارهاً، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم، ورأينا ورأيتم»[١].

لاحظوا، الرؤية التي لدى الإمام الحسين C هي نفس الرؤية التي لدى الإمام الحسن C .

كان هذا هو التثقيف السياسي الذي قام به الإمام الحسن C .

نقد طه حسين:

ومع الأسف أن يأتي كاتب مثل طه حسين فيطرح مفهوماً آخراً فيقول: إنَّ الإمام الحسن C شكَّل وهو في المدينة المنوّرة حزباً سياسياً قاعدته العراق، ويستشهد لذلك باللقاءات بين الإمام الحسن وبين العراقيين.

ونحن لا نسير معه في هذه التصوّرات، لكن أصل الفكرة وهي أنَّ هناك تثقيفاً سياسياً هي فكرة صحيحة، لكنَّه لم يصل إلى حدِّ تكوين حزب سياسي، ولا كان لدى أهل البيت G إستراتيجية تشكيل حزب سياسي. لقد سافر الإمام الحسن C إلى الشام العاصمة السياسية، وكان دوره هو كشف الهوية وتعرية حقيقة الحكم الأموي، وكانت سجالات عديدة يذكرها المؤرِّخون في قلب العاصمة الأموية بين الإمام الحسن C وبين معاوية وأمام الملأ في البلاط الأموي، سجالات مع معاوية وعمرو بن العاص في فضح هوية هؤلاء.

في أحد تلك الحوارات قال معاوية للإمام الحسن C : أنا أخير منك يا حسن!

قال الإمام C : «وكيف ذاك يا ابن هند؟!».

قال: لأنَّ الناس قد أجمعوا عليَّ ولم يجمعوا عليك.

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٤٢.

قال الإمام C : «هيهات هيهات، لشر ما علوت يا ابن آكلة الأكباد، المجتمعون عليك رجلان بين مطيع ومكره، فالطائع لك عاصٍ لله، والمُكره معذور بكتاب الله، وحاشا لله أن أقول: أنا خير منك، فلا خير فيك»[1].

هذه السجالات كانت تتكرّر في الشام، حتّى قال الأمويون لمعاوية: يا معاوية، إنَّ أمرنا مع وجود الحسن في الشام لا يستقيم. فاتخذ معاوية قراراً بإعادة الإمام الحسن إلى المدينة المنوّرة.

المهمّة الثانية: مواجهة حرب الاستئصال:

وهنا نصوص تأريخية تقول: إنَّ سياسة معاوية كانت عبارة عن العمل على استئصال شيعة علي، وبعد ذلك استئصال جذر الإسلام الحقيقي، وتحويل الدولة إلى إمبراطورية قيصريّة، ولو راجعنا نصوص الإمام الحسن C لوجدنا ذلك واضحاً، حيث يقول C لمالك بن ضمرة وقد عاتبه بقساوة على الصلح: «إنّي خشيت أن تجتثوا عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين في الأرض ناعي»[2]، يعني لا يمكن أن أقبل باجتثاث الإسلام. ثمّ قال C : «والله لأن تذّلوا وتُعافوا أحبُّ إليَّ مِن أن تعزّوا وتُقتلوا»[3]، فإنَّه سوف لا يبقى من التشيُّع شيء.

ومن ناحية أخرى فإنَّ حركة الإمام الحسن C كانت بانتظار توفير الفرصة المناسبة بهلاك معاوية، كان ذلك هو موقف الإمام الحسن C وموقف الإمام الحسين C أيضاً.

يذكر المؤرِّخون: أنَّ أوّل من لقي الحسن بن علي C ، فكلّمه

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٦.

(٢) تاريخ دمشق ١٣: ٢٨٠.

(٣) الإمامة والسياسة ١: ١٤٢.

في ذلك، ودعاه إلى خوض الحرب هو حجر بن عدي، فقال له: (يا بن رسول الله، لوددت أنّي مِتُّ قبل ما رأيت، أخرجتنا من العدل إلى الجور، فتركنا الحقّ الذي كنّا عليه، ودخلنا في الباطل الذي كنّا نهرب منه، وأعطينا الدنية من أنفسنا، وقبلنا الخسيسة التي لم تلق بنا).

فاشتدَّ على الحسن C كلام حجر، فقال له: «إنّي رأيت هوى عظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم أحبّ أن أحملهم على ما يكرهون، فصالحت بقياً على شيعتنا خاصة من القتل، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما، فإنَّ الله كلّ يوم هو في شأن».

قال: فخرج من عنده، ودخل على الحسين C مع عبيدة بن عمرو، فقالا: (أبا عبد الله، شريتم الذل بالعز، وقبلتم القليل، وتركتم الكثير، أطعنا اليوم، واعصنا الدهر، دع الحسن وما رأى من هذا الصلح، واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها، وولّني وصاحبي هذه المقدمة، فلا يشعر ابن هند إلاَّ ونحن نقارعه بالسيوف). فقال الحسين C: «إنّا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا»[(١)].

من المفيد أن نشير إلى أنَّ هذه الأرقام تؤكّد ارتباط العراقيين بأهل البيت G.

ثمّ أرسلوا بعد وفاة الحسن C رسائل ووفوداً للإمام الحسين C يطلبون منه الثورة، فقال C:

«قد كان صلح، وكانت بيعة كنت لها كارهاً، فانتظروا ما دام هذا الرجل _ معاوية _ حيّاً، فإن يهلك نظرنا ونظرتم...»[(١)].

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٢٠.

(١) أنساب الأشراف ٣: ١٥٠/ ح ١٠.

إذن، لا بدَّ من انتظار الفرصة المناسبة للثورة، وهي هلاك معاوية، هذه هي سياسة الإمام الحسن C ، وهي نفسها نجدها في سياسات الإمام الحسين C .

والمهمّة الثالثة: وهي الامتداد في جسم الأمّة، فالإمام الحسن C لم ينعزل في البيت، ولم يؤثِر الابتعاد عن هموم الناس، ولهذا فهو يُسمّى كريم أهل البيت G . ولأنَّ لديه مثل هذا الامتداد، فقد شنّوا عليه حرباً معنويةً لتحجيم وجوده في الأمّة.

سياسات الإمام الحسين C :

ننتقل للحسين C سوف نجده بنفس السياسات طوال عهد معاوية، وعندما تغيَّر الحكم اقتضت المرحلة موقفاً آخر، وتمثَّلت سياسة الإمام الحسين C بما يلي:

١ _ تأجيل المواجهة لحين هلاك معاوية.

٢ _ الإعلان عن عدم شرعية حكم معاوية.

٣ _ تأكيد الشرعية لأهل البيت G .

وبعد هلاك معاوية نهض الإمام الحسين C لتعبئة الرأي العام وإسقاط حكم يزيد.

وهنا أيضاً رأي يقول: إنَّ الإمام الحسين C ما كان يريد أن يخوض حرباً مسلَّحة، بل إنَّه جاء عبر عملية انتخابية، لكنَّه حينما حوصر وقُطع عنه الماء أصبحت القضيّة قضيّة طلب ماء وقضيّة المحافظة على الحياة.

إذن، نستطيع أن نقول: إنَّ المواجهة العسكرية فُرضَتْ على الإمام الحسين C فرضاً.

عندنا رواية تقول: إنَّ الإمام الحسين C خاطب جيش ابن سعد بقوله: «أخبروني، أتطلبوني بقتيل منكم قتلته! أو مال لكم استهلكته؟ أو بقصاص من جراحة؟».

قال الراوي: فأخذوا لا يكلّمونه، فنادى: «يا شَبَث بن ربعي، ويا حجّار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أن قد أينعت الثمار، واخْضَرَّ الجناب، وطمت الجمام، وإنَّما تقدم على جندٍ لك مجنَّد، فأقبل؟»، فقالوا له: لم نفعل، فقال: «سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم». ثمّ قال: «أيّها الناس، إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض»، فقال له قيس بن الأشعث: أوَلا تنزل على حكم بني عمّك؟ فإنَّهم لن يروك إلاَّ ما تُحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه، فقال له الحسين: «أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله، لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ إقرار العبيد. عباد الله، إنّي عذتُ بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب».

قال الراوي: ثمّ إنَّه أناخ راحلته وأمر عُقبة بن سمعان فعقلها، وأقبلوا يزحفون نحوه»[(١)].

لا حولَ ولا قوّةَ إلاّ باللهِ العليّ العظيم، [وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ][(١)].

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) مقتل الحسين لأبي مخنف: ١١٨؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣.

(١) الشعراء: ٢٢٧.

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

أبصار العين في أنصار الحسين: السماوي/ت الطبسي/مط حراس الثورة/ ١٤١٩هـ.

الاحتجاج: أحمد بن علي الطبرسي/ت محمّد باقر الخرسان/مط النعمان/دار النعمان.

الأخبار الطوال: أبي حنيفة الدينوري/دار إحياء الكتاب العربي/ ١٩٦٠م.

الاختصاص: الشيخ المفيد/ت عليّ أكبر غفاري/جماعة المدرسين/قم.

الإرشاد: الشيخ المفيد/مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/قم.

إرشاد القلوب: أبي محمّد الحسن الديلمي/ت السيد الميلاني.

أُسد الغابة: ابن الأثير/منشورات إسماعيليان/طهران.

الإصابة: ابن حجر.

إعلام الورى: أمين الإسلام الطبرسي/مؤسسة آل البيت G /قم.

إقبال الأعمال: ابن طاووس/ط ١/ ١٤١٤هـ/مطبع ونشر مكتب الإعلام الإسلامي.

الأمالي: الشيخ الصدوق/ت قسم الدراسات الإسلامية/مؤسسة البعثة.

الأمالي: الشيخ الطوسي/مؤسسة البعثة/قم/الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ.

الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدينوري/الأولى/ايران/١٤١٣هـ.

أنساب الأشراف: البلاذري/ت المحمودي/مؤسسة الأعلمي/بيروت/ ١٩٧٤م.

بحار الأنوار: محمّد باقر المجلسي/ط ٢/ ١٤٠٣هـ/طبع ونشر مؤسسة الوفاء/بيروت.

البداية والنهاية: الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي/ط ١/ ١٤٠٨هـ/مط دار إحياء التراث العربي.

تاريخ الإسلام: الذهبي/ ت تدمري/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ ١٩٨٧م.
تاريخ الأمم والملوك: ابن جرير الطبري/ نشر لجنة من العلماء/ الأعلمي/ بيروت.
تاريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ ١٤١٧هـ.
تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر/ ط ١٤١٥هـ/ مط دار الفكر/ ت عليّ شيري.
تاريخ اليعقوبي: اليعقوبي/ دار صادر/ بيروت.
ترجمة الإمام الحسين من تاريخ دمشق: ابن عساكر/ مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة.
التفسير الكبير: الفخر الرازي.
تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي.
دلائل الإمامة: أبي جعفر محمّد الطبري/ ت قسم الدراسات الإسلامية/ ط ١/ ١٤١٣/ مط مؤسسة البعثة.
ذخائر العقبى: محب الدين الطبري/ مكتبة المقدسي/ القاهرة/ ١٣٥٦هـ.
روضة الواعظين: محمّد بن الفتال النيسابوري/ منشورات الرضي/ قم.
الرياض النظرة في فضائل العشرة: محب الدين الطبري.
شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد/ ت محمّد أبو الفضل/ مط المرعشي/ دار إحياء الكتب العربية.
السقيفة وفدك: الجوهري/ ت محمّد هادي الأميني/ شركة الكتبي للطباعة/ بيروت/ ١٩٨٠م.
سنن ابن ماجة: ابن ماجة القزويني/ دار الفكر/ (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي).
سنن أبي داود: أبو داود السجستاني/ دار الفكر/ (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي).
سنن الترمذي: الترمذي/ دار الفكر/ تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.
سنن النسائي: أحمد بن شعيب النسائي/ ط ١/ ١٣٤٨هـ/ دار الفكر/ بيروت.
السيرة الحلبية: الحلبي/ ط: مصطفى الحلبي.

الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري/ دار العلم للملايين/ بيروت/ ١٤٠٧هـ.
صحيح البخاري: محمّد بن إسماعيل البخاري/ مط دار الفكر بيروت.
صحيح مسلم: مسلم ابن الحجاج النيسابوري/ دار الفكر بيروت.
صفة الصفوة: ابن الجوزي.
الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة: ابن حجر العسقلاني.
الطبقات الكبرى: محمّد بن سعد/ دار صادر/ بيروت.
العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي.
علل الشرائع: الشيخ الصدوق/ مط الحيدرية النجف/ ١٣٨٦هـ.
عمدة الطالب: ابن عنبة/ مط الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٩٨٠م.
الغارات: إبراهيم الثقفي الكوفي/ ت جلال الدين المحدث/ مط بهمن/ إيران.
الغدير: الشيخ عبد الحسين الأميني/ مط دار الكتاب العربي/ بيروت/ ط ١٣٧٩هـ.
الفتوح: أحمد بن محمّد بن علي بن أعثم الكوفي.
فرائد السمطين: شيخ الإسلام الحمويني.
قرب الإسناد: عبد الله بن جعفر الحميري/ نشر مؤسسة آل البيت/ ط ١/ ١٤١٣هـ.
الكافي: الشيخ الكليني/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط ٣/ ١٣٨٨هـ/ مط حيدري.
كامل الزيارات: الشيخ جعفر بن محمّد بن قولويه القمي/ ت جواد القيومي/ ط ١/ ١٤١٧/ مط مؤسسة النشر الإسلامي.
الكامل في التاريخ: ابن الأثير.
كشف الغمة في معرفة الأئمة: عليّ بن عيسى بن الفتح الأربلي/ مط دار الأضواء بيروت/ ط ٢/ ١٤٠٥هـ/ الناشر دار الأضواء.
كمال الدين: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط ١٤٠٥هـ/ جماعة المدرسين.
كنز العمّال: المتقي الهندي/ ت مجموعة/ مطبع ونشر/ مؤسسة الرسالة/ بيروت.

اللهوف في قتلى الطفوف: السيد عليّ بن طاووس/ ط ١/ ١٤١٧ هـ/ مط مهر.
مثير الأحزان: ابن نما الحلي/ ١٣٦٩هـ/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف.
مجمع الزوائد: نور الدين الهيثمي/ ط ١٤٠٨هـ/ طبع ونشر دار الكتب العلمية/ بيروت.
مروج الذهب: علي بن الحسين المسعودي.
المستدرك: الحاكم النيسابوري/ ت المرعشلي/ دار المعرفة/ بيروت ١٤٠٦هـ.
مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل/ طبع ونشر دار صادر/ بيروت.
مطالب السؤول: كمال الدين محمّد بن طلحة الشافعي.
معاني الأخبار: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط ١٣٦١هـ/ انتشارات إسلامي.
المعجم الكبير: الطبراني/ ت السلفي/ مط دار إحياء التراث العربي/ ابن تيمية/ القاهرة.
مقتل الحسين: الأزدي/ ت الغفاري/ مط العلمية ١٣٩٨هـ/ الناشر مكتبة شهاب الدين.
المناقب: أحمد الخوارزمي/ ت المحمودي/ ط ونشر مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب/ ت مجموعة ط ١٣٧٦/ مط الحيدرية/ النجف.
نهج البلاغة: خطب الإمام علي C / ت محمّد عبده/ الناشر دار المعرفة/ بيروت.
ينابيع المودة: سليمان القندوزي الحنفي/ ت عليّ الحسيني/ ط ١/ ١٤١٦هـ/ دار الأسوة.

* * *

فهرست الموضوعات

* * *